الفصل الثالث

تنزيل الآيات على الواقع في تفسير ابن باديس

تمهيد:

عاش ابن باديس في فترة الاستعمار الفرنسي الذي كان سببًا في تراجع الجزائر دينيًا وثقافيًا، في حين كان يغلب على أهلها الصلاح والاهتمام بالعلم[196]، وأراد الاستعمار القضاء على الدين الإسلامي، فشجّع العامة على التمسك بالخرافات والعقائد البعيدة عن الإسلام؛ ليبتعدوا عن حقيقته وينقادوا إليها[197]، فحاول ابن باديس أن ينقذ مجتمعه من خلال الرجوع إلى كتاب الله ﷻ، واستنباط الأحكام منه، وتنزيلها على واقعهم؛ لتكون علاجًا للقضايا المستجدّة في عصره، وكان يقول: "أن نقرأ القرآن ونتفهمه، حتى تكون آياته على طرف ألسنتنا، ومعانيه نصب أعيننا؛ لنطبق آياته على أحوالنا، وننزلها عليها كما كانت تنزل على الأحوال والوقائع، فإذا حدث مرض قلبي أو اجتماعي طلبنا دواءه في القرآن وطبقناه عليه، وإذا عرضت شبهة أو ورد اعتراض، طلبنا فيه الرد والإبطال، وإذا نزلت نازلة طلبنا فيه حكمها، وهكذا نذهب في تطبيقه وتنزيله على الشؤون والأحوال إلى أقصى حد يمكننا"[198]، ويظهر الوضوح التام في منطلق ابن باديس؛ فالرجوع إلى القرآن الكريم هو الطريق بلا شك، وهناك نقطة مهمة انطلق منها في تنزيل القرآن على الواقع، وهي أنّ من حكمة نزول القرآن منجمًا نزوله حسب الوقائع والأحداث.

والقارئ لتفسيره يجده مليئًا بالتوجيهات التي تعالج أمراض مجتمعه، وتربطهم بكتاب ربهم، وتعيد لهم

---

196. راجع ما كُتب في مقدمة هذا البحث عن الحالة الدينية والثقافية.

197. سعد الله. 1998م. *تاريخ الجزائر الثقافي*. ج.5. ص.151.

198. ابن باديس. 1995م. *تفسير ابن باديس*. ص.181.

مجدهم وسيادتهم، وتكون لهم قانونًا متّبَعًا يسيرون عليه في حياتهم، ويُعدّ تفسيره تفسيرًا إصلاحيًا اجتماعيًا، وإن كان لا يدلّ كثيرًا على تنزيل الآيات على الواقع.

وقد اشتمل تفسيره على مجالات كثيرة ومتعددة، لكني اخترت منها ثمانية جوانب؛ لأنها الأبرز في تفسيره، ولحاجة المسلمين إليها، وهي: جانب العقيدة والدعوة، وجانب الأخلاق والزهد والرقائق، وطلب العلم وتدبر القرآن، والقضايا الاجتماعية والسياسية، وتفصيلها في المباحث التالية:

UNIVERSITI SAINS ISLAM MALAYSIA
جامعة العلوم الإسلامية الماليزية
ISLAMIC SCIENCE UNIVERSITY OF MALAYSIA

المبحث الأول

تنزيل الآيات على الواقع في مجال العقيدة

لما رأى ابن باديس ضعف عقيدة المسلمين، وتخلخل قيمهم في الجزائر أثناء الاستعمار الفرنسي[199]، بدأ يتأمل حال واقعه ويفكر من أين يبدأ في التغيير؟ فرأى أنّ التغيير يبدأ من تصحيح الاعتقاد، فوجّه جهوده إلى إصلاح عقائد الجزائريين، ومحاربة أباطيل الصوفية[200]، مع العلم أنه لم يحارب التصوف لذاته؛ وإنما حارب ما كان يقع منهم من أباطيل وخرافات وغلو.

وقد احتوت جريدة الشهاب التي أسسها على صفحات رائعة في موضوع الصراع الديني بين السنة والبدعة، وبين العقل والخرافات[201]، وكان يرجع إلى الكتاب والسنة لمعرفة العقيدة الصحيحة، بعيدًا عن منهج المتكلمين الذين افتتن بعض الناس بهم، ونادى في مجتمعه بالرجوع إلى القرآن الكريم، وأخْذ عقيدتهم منه لا من غيره[202]، ووصفَ حال المسلمين في عصره: بأنّ منهم مَن أصبح هاجرًا للقرآن –رغم بسطه

---

199. راجع ص. 36– 38 من هذا البحث.

200. المقصود هنا محاربة المناهج الفاسدة، وإلا كان هناك من أهل السنة المتصوفة، وقد ذكر ذلك ابن تيمية فقال: "والصواب أنهم مجتهدون في طاعة الله كما اجتهد غيرهم من أهل طاعة الله، ففيهم السابق المقرب بحسب اجتهاده، وفيهم المقتصد الذي هو من أهل اليمين، وفي كل من الصنفين من قد يجتهد فيخطئ، وفيهم من يذنب فيتوب أو لا يتوب، ومن المنتسبين إليهم من هو ظالم لنسه، عاصٍ لربه". ابن تيمية. تقي الدين أبو العباس أحمد بن عبد الحليم. 1995. *مجموع الفتاوى*. المملكة العربية السعودية: مجمع الملك فهد لطباعة المصحف الشريف. ج.11. ص. 18.

201. حمياني. 1984. *صراع بين السنة والبدعة*. ص. 65.

202. العقيدة الإسلامية توقيفية، ولا تثبت إلا بدليل من الشارع، ولذا فإنّ مصادر العقيدة تقتصر على ما جاء في القرآن الكريم والسنة النبوية، وهذه الخاصية للعقيدة الإسلامية تميزها عن غيرها من المعتقدات الوثنية التي تُنشئها المشاعر والأخيلة والأوهام والتصورات البشرية من تلقاء نفسها. كما أنها تميزها عن العقائد السماوية في صورتها الأخيرة التي آلت إليها على يد الأتباع بما أضافوه إليها، وبما حذفوه منها، وبما غيروا فيها وبدلوا، حسب ما أملته عليهم أهواؤهم وشهواتهم ورغباتهم الذاتية ومصالحهم البشرية، فتحولت تلك الديانات والعقائد إلى ديانات وثنية. انظر: ضميرية. عثمان جمعة. 1996. *مدخل لدراسة العقيدة الإسلامية*. المملكة العربية السعودية: مكتبة السوادي للتوزيع. ط.2. ص.383-384.

لعقائد الإيمان كلها بأدلتها العقلية القريبة القاطعة- وانحراف بعضهم وانخراطهم وراء المتكلمين، وقولهم عن أدلة القرآن: إنها أدلة سمعية لا تحصل اليقين[203]، وأخذهم في الطرائق الكلامية المعقّدة، وإشكالاتها المتعددة، واصطلاحاتها المحدثة، مما يصعب أمره على الطلبة فضلًا عن العامة[204]، وحثّ الدعاة على تعليم الناس عقيدتهم من القرآن الكريم؛ لأنّ أدلة العقائد مبسوطة في القرآن العظيم بغاية البيان، ونهاية التيسير، وأدلة الأحكام أصولها مذكورة كلها فيه، وبيانها وتفاصيلها في سنة النبي ﷺ، ويجب على كل مكلف أن يكون في كل عقيدة من عقائده الدينية على علم[205]، ولن يجد العامي الأدلة لعقائد سهلة قريبة إلّا في كتاب الله، فهو الذي يجب على أهل العلم أن يرجعوا إليه في تعليم العقائد للمسلمين[206].

وأشار إلى المخالفات الواقعة في عصره في بعض جوانب العقيدة، فحذّر منها أيّما تحذير؛ خاصة إذا كانت تنافي التوحيد، أو تدعو إلى البدعة، وكان في تفسيره لآيات القرآن على منهج أهل السنة والجماعة، وحارب بشدة وصلابة تلك الخرافات التي التصقت بالدين وهو منها بريء[207]، ودعا الناس إلى التمسك بالعقيدة الصحيحة، وتوحيد الله ﷻ[208]؛ لأنه الغاية التي خلق الله الناس لأجلها، ومن أجله أرسل الرسل، وأنزل الكتب، وهو شرط في قبول الأعمال. ويأتي تقسيم الآيات التي ذكر فيها ذلك حسب المطالب الآتية:

---

203. أهل الكلام يجعلون الأصل الذي يعتقدونه ويعتمدونه هو ما ظنوا أنّ عقولهم عرفته، ويجعلون ما جاءت به الأنبياء تبعًا له، فما وافق قانونهم قبلوه، وما خالفه لم يتبعوه. انظر: ابن تيمية، تقي الدين أبو العباس أحمد. 1991. *درء تعارض العقل والنقل*. المملكة العربية السعودية: جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية. ط.2. ج.1. ص.6.

204. ابن باديس. 1995م. *تفسير ابن باديس*. ص.173.

205. العقيدة هي أهم علوم الدين، ومعرفتها أول واجب على العبد؛ لأنها الأساس الذي يُبنى عليه العمل، وهي السبيل إلى تحقيق العبودية، قال تعالى: ﴿فَٱعۡلَمۡ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ وَٱسۡتَغۡفِرۡ لِذَنۢبِكَ وَلِلۡمُؤۡمِنِينَ وَٱلۡمُؤۡمِنَٰتِۗ﴾ [محمد 47: 19].

206 المصدر نفسه. ص. 105.

207. المدني. أحمد توفيق. 1977م. "عبد الحميد ابن باديس الرجل العظيم".. *مجلة الأصالة*. عدد (44). أبريل. ص.64.

208. ألف ابن باديس في ذلك كتابًا سماه: (العقائد الإسلامية من الآيات القرآنية، والأحاديث النبوية)، ذكر فيه مفهوم التوحيد، ومنهج الإيمان بالصفات، وشرح فيه أركان الإيمان. وكان ينشر العقيدة الإسلامية الصحيحة من خلال دروسه في التفسير، وظهر ذلك جليًا في تفسيره.

المطلب الأول: دعوته إلى التمسك بالتوحيد وتصحيحه

التوحيد هو أول واجب على العباد، وهو من أهم الأمور التي يجب علينا أن ندعو الناس إليه، فهو أعظم أمرٍ أمرنا الله ﷻ به، وقد تحسّر ابن باديس على ما يقع في عصره من كيد للمسلمين، فقال مخاطبًا شعبه: "وحورب فيكم الإسلام حتى ظُنّ أن قد طُمست أمامكم معالمه، وانتُزِعت منكم عقائده ومكارمه[209]، فجئتم بعد قرن ترفعون علم التوحيد، وتنشرون من الإصلاح لواء التجديد، وتدعون إلى الإسلام كما جاء به محمد ﷺ وكما يرضى الله، لا كما حرَّفه الجاهلون، وشوَّهه الدجّالون، ورضِيَه أعداؤه"[210].

فدعا قومه إلى التمسك بالتوحيد إلى الممات، وقال معلّقًا على آيات فسّرها في سورة الإسراء: وفي افتتاح الآيات بقوله تعالى: ﴿لَّا تَجۡعَلۡ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ فَتَقۡعُدَ مَذۡمُومٗا مَّخۡذُولٗا ٢٢﴾[211]، وختْمها بقوله تعالى: ﴿وَلَا تَجۡعَلۡ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ فَتُلۡقَىٰ فِي جَهَنَّمَ مَلُومٗا مَّدۡحُورًا ٣٩﴾[212]، بيان من الله تعالى لخلقه، بأنّ الدين هو أصل هذه الكمالات كلها، وأنّ التوحيد هو ملاك الأعمال وقوامها، ومنه بدايتها وإليه نهايتها، وكذلك المسلم الموفّق يبتدئ حياته بكلمة التوحيد حتى يموت عليها[213].

وعند تفسير قوله تعالى: ﴿قُلۡ كُلّٞ يَعۡمَلُ عَلَىٰ شَاكِلَتِهِۦ فَرَبُّكُمۡ أَعۡلَمُ بِمَنۡ هُوَ أَهۡدَىٰ سَبِيلٗا ٨٤﴾[214] نبّه بأنّ الذي ينبغي أن نوجّه إليه الاهتمام الأعظم في تربية أنفسنا وتربية غيرنا هو تصحيح

---

209. قالها بعدما رأى تدبير المكائد من قبَل الاستعمار لأبناء الشعب الجزائري، وقد ذكرت ذلك في الفصل الأول من هذا البحث.

210. طالبي. 1968م. *آثار ابن باديس*. ج.3. ص. 556.

211. القرآن. الإسراء 17: 22.

212. القرآن. الإسراء 17: 39.

213. ابن باديس. 1995م. *تفسير ابن باديس*. ص.112.

214. القرآن. الإسراء 17: 84.

العقائد، وتقويم الأخلاق؛ لأنّ الباطن أساس الظاهر، وفي الجسد مضغة إذا صلحت صلح الجسد كله، وإذا فسدت فسد الجسد كله[215].

وهذا تنزيل صحيح للآية؛ فتصحيح العقيدة من أهم الأمور التي ينبغي أن يهتم بها كل مسلم، ولما بعث النبي ﷺ معاذ بن جبل رضي الله عنه إلى اليمن قال له: «إِنَّكَ تَقْدَمُ عَلَى قَوْمٍ مِنْ أَهْلِ الكِتَابِ، فَلْيَكُنْ أَوَّلَ مَا تَدْعُوهُمْ إِلَى أَنْ يُوَحِّدُوا اللَّهَ تَعَالَى»[216]، ونحن في أمسّ الحاجة إلى الدعوة إلى توحيد الله ﷻ في هذا العصر؛ لا سيما مع كثرة مظاهر الشرك والبدع، ولذا نجد ابن باديس اعتنى بهذا الجانب، إدراكًا منه بأهميته على الفرد والأمة، وإن لم يكن قد ذكر ما يقع في مجتمعه من صراحةً، لكنها من منطلق الإصلاح والواجب الديني ذكر أهم ما ينبغي على المسلم تطبيقه؛ وهو تصحيح العقيدة، وقد تجلى مظاهر اهتمامه في النقاط التالية:

1- **حث العلماء على تعليم الناس العقيدة الصحيحة:** فبعد تفسيره لقول الله ﷻ: ﴿وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ ۚ إِنَّ ٱلسَّمْعَ وَٱلْبَصَرَ وَٱلْفُؤَادَ كُلُّ أُوْلَٰٓئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْـُٔولًا ﴿٣٦﴾﴾[217] ذكر أنّ المقلّد في العقائد الذي لا دليل عنده أصلًا، وإنما يقول: سمعت الناس يقولون فقلت،

---

[215]. ابن باديس. 1995م. *تفسير ابن باديس*. ص. 150، والجملة الأخيرة جزء من حديث عن عامر، قال: سمعت النعمان بن بشير، يخطب ويهوي بإصبعه إلى أذنيه يقول: سمعت النبي ﷺ يقول: «الحلال بين والحرام بين، وبينهما أمور مشتبهات، فمن اتقى الشبهات استبرأ لدينه وعرضه، ومن وقع في الشبهات وقع في الحرام، كالراعي يرعى حول الحمى يوشك أن يرتع فيه، ألا إن لكل ملك حمى، وإن حمى الله محارمه، ألا وإن في الجسد مضغة إذا صلحت صلح الجسد كله، وإذا فسدت فسد الجسد كله، ألا وهي القلب» البخاري. 1422هـ. *صحيح البخاري*. باب فضل من استبرأ لدينه. ج.1: 20. رقم الحديث: 52.، ورواه مسلم. مسلم بن الحجاج أبو الحسن القشيري. د. ت. *المسند الصحيح المختصر بنقل العدل عن العدل إلى رسول الله* ﷺ. كتاب المساقاة. باب أخذ الحلال وترك الشبهات. ج.3: رقم الحديث: 1599.

216. البخاري. 1422هـ. *صحيح البخاري*. كتاب التوحيد. باب ما جاء في دعاء النبي ﷺ أمته في توحيد الله ﷻ. ج.9. ص.114. رقم الحديث: 7372. ومسلم. د. ت. *صحيح مسلم*. كتاب الإيمان. باب الدعاء إلى الشهادتين وشرائع الإسلام. ج.1. ص.51. رقم الحديث: 19.

[217]. القرآن. الإسراء 17: 36.

فهو آثم؛ لاتّباعه ما ليس له به علم، ثم دعا أهل العلم لتعليم العامة عقيدتهم الصحيحة، وأدلتها من القرآن العظيم؛ فيجب على كل مكلف أن يكون في كل عقيدة من عقائده الدينية على علم، ولن يجد العامي الأدلة لعقائد سهلة إلّا في كتاب الله[218]، فهو الذي يجب على أهل العلم أن يرجعوا في تعليم العقائد للمسلمين إليه[219].

وقوله: إنّ المقلّد في العقائد آثم فيه نظر؛ فكثير من أهل العلم قالوا بجواز التقليد في العقائد مما لا يمكن معرفته بالدليل، والله ﷻ يقول: ﴿فَسْـَٔلُوٓاْ أَهۡلَ ٱلذِّكۡرِ إِن كُنتُمۡ لَا تَعۡلَمُونَ ﴿٤٣﴾﴾[220]، وسؤال أهل الذكر يعني الأخذ بقولهم، وتقليد السائل لهم، والتقليد في مسائل العقيدة كالتقليد في المسائل العلمية، بلا فرق[221]، وذكر السفاريني عن بعض علماء الشافعية: أنّ المختار الذي عليه السلف وأئمة الفتوى من الخلف وعامة الفقهاء، صحة إيمان المقلد، ولم يذكروا أنه آثم[222]، وذكر الإمام الشوكاني الخلاف في هذه المسألة وردّ على من قال بعدم صحة إيمان المقلّد، واعتبر ذلك تكليف للناس بما ليس في وُسعهم، واستدلّ بعدم تكليف رسول الله ﷺ وهو بين أظهر الصحابة الذين لم يبلغوا درجة الاجتهاد بمعرفة ذلك، ولا

---

218. العامي سيتعلم من آيات القرآن التي تتضمن دلائل التوحيد الأمور التي لا يُعذر أحد بجهلها، وهو ما تتبادر الأفهام إلى معرفة معناه، فكل أحد يدرك معنى التوحيد من قوله تعالى: ﴿فَٱعۡلَمۡ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ﴾ [محمد 47: 19]. وأنه لا شريك له في إلهيته. انظر: الزركشي. أبو عبد الله بدر الدين محمد. 1957. *البرهان في علوم القرآن*. مصر: دار إحياء الكتب العربية. ج.2. ص.162، ومن الآيات ما يحتاج إلى الرجوع في فهمها إلى أهل العلم، وعلى العامي أن يرجع إليهم فيما يُشكل عليه في أمر العقيدة.

219. ابن باديس. 1995م. *تفسير ابن باديس*. ص.105.

220. القرآن. النحل 16: 43.

221. العثيمين. لقاء الباب المفتوح. شريط رقم 94.

222. السفاريني. شمس الدين، أبو العون محمد. 1982. *لوامع الأنوار البهية وسواطع الأسرار الأثرية لشرح الدرة المضية في عقد الفرقة المرضية*. دمشق: مؤسسة الخافقين ومكتبتها. ط.2. ج.1. ص.269.

أخرجهم عن الإيمان بتقصيرهم عن البلوغ إلى العلم بذلك بأدلته [223].

ويظهر هنا اعتدال ابن باديس، وعدم تطرّفه؛ فمع تقريره أنّ المقلد آثم، إلا أنه لم يُكفّره؛ كما يفعل الغلاة، ولكن يلزمه التعليم، ويؤثمه بالتقصير.

2- **حضّ الناس على إخلاص العبادة لله** ﷻ: عند تفسير قول الله ﷻ: ﴿۞وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعۡبُدُوٓاْ إِلَّآ إِيَّاهُ﴾ [224] بيّن ابن باديس أنّ الله ﷻ يأمرنا بإخلاص العبادة له سبحانه، ثم ذكر الأعمال التي تصرف العبادة لغير الله، خاصة أعمال القلوب، فبيّن أنّ ذُلّ القلب وخضوعه، والشعور بالضعف والافتقار، والطاعة والانقياد، والتضرع والسؤال، هذه كلها لا تكون إلاّ لله، فمَن خضع قلبه لمخلوق على أنه يملك ضره أو نفعه فقد عبده، ومَن ألقى قِياده بيد مخلوق يتبعه فيما يأمره وينهاه غير مُلتفتٍ إلى أنه من عنده أو من عند الله فقد عبده، ومَن توجّه لمخلوق فدعاه ليكشف عنه السوء، أو يدفع عنه الضر فقد عبده، ومَن شعر بضعفه وافتقاره أمام مخلوق على أنه يملك إعطاءه أو منعه فقد عبده، فالله تعالى يُعلم الخلق كلهم في هذه الآية بأنه أمر أمرًا عامًا، وحكم حكمًا جازمًا، بأنّ العبادة لا تكون إلاّ له [225].

ولعلّ سبب تفصيله في العبادات القلبية التي لا ينبغي أن تكون إلا لله؛ يعود إلى أمرين:

الأول: انتشار بدع الصوفية في زمانه، وكان الناس يصرفون بعضًا من أعمال القلوب لغير الله.

والثاني: لأنّ أعمال القلوب أشد خطرًا من أعمال الجوارح، وقد يغفل عنها كثير من الناس.

---

[223]. الشوكاني. محمد بن علي بن محمد. 1999. *إرشاد الفحول إلي تحقيق الحق من علم الأصول*. بيروت: دار الكتاب العربي. ج.2. ص.241.

[224]. القرآن. الإسراء 17: 23.

[225]. ابن باديس. 1995م. *تفسير ابن باديس*. ص. 63.

وكل ما ذكره من أعمال يُعدّ من التوحيد العملي الذي لا يُصرف إلا لله ﷻ.

3- **الترهيب من مخالفة الفطرة السليمة بالإعراض عن دين الله:** فقد شرع الله ﷻ الإسلام وجعله موافق للفطرة السليمة، وجعل للفطرة ضوابط حتى لا تنحرف، وهذه الضوابط ذكرها الله ﷻ في كتابه الكريم، قال تعالى: ﴿لَقَدْ حَقَّ ٱلْقَوْلُ عَلَىٰٓ أَكْثَرِهِمْ فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ۝٧ إِنَّا جَعَلْنَا فِيٓ أَعْنَٰقِهِمْ أَغْلَٰلًا فَهِيَ إِلَى ٱلْأَذْقَانِ فَهُم مُّقْمَحُونَ ۝٨ وَجَعَلْنَا مِنۢ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ سَدًّا وَمِنْ خَلْفِهِمْ سَدًّا فَأَغْشَيْنَٰهُمْ فَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ ۝٩﴾[226]، وعند تفسير ابن باديس لهذه الآية وضع عنوانًا جانبيًا (ترهيب)؛ وأشار إلى أنّ كل ما دعا إليه الإسلام من عقائد وأخلاق وأعمال، فهو مما تقبله الفطرة السليمة، وتدركه العقول بالنظر الصحيح[227]، وأنّ مَن قابل دعوة الإسلام بالإعراض والعناد، وخالف فطرته، كان حقيقًا بهذا العقاب الشديد من طمس البصيرة، والطبع على القلب، وقد ذكَرَ الله لنا هذه العقوبة بهذا التمثيل البليغ، الذي صوّرها في أبشع وأفظع صورة؛ ليحذّرنا من الإعراض عن الحق والعناد له، ويخوّفنا بعاقبة ذلك على أهله[228].

وهذا المعنى ورد في قول النبي ﷺ: «مَا مِنْ مَوْلُودٍ إِلَّا يُولَدُ عَلَى الْفِطْرَةِ،...»[229] فالإسلام دين الفطرة السليمة، فقد فطر الله الناس على عبادته وحده، وإذا خالف الإنسان هذه الفطرة فقد عرّض نفسه للعذاب، ومجتمعه للذُّل والصَّغار، ولذلك كان تنزيل ابن باديس لهذه الآية تنزيلًا صحيحًا فيه نوع من

---

226. القرآن: يس 36: 7-9.

227. الواقع يشهد على ذلك، فما أن يصيب الإنسان مصيبة عظيمة يلجأ إلى الله ﷻ بذلّ وإخلاص، حتى وإن كان كافرًا.

228. ابن باديس. 1995م. *تفسير ابن باديس*. ص. 302.

229. البخاري. 1422هـ. *صحيح البخاري*. كتاب الجنائز. باب إذا أسلم الصبي فمات، هل يصلى عليه، وهل يعرض على الصبي الإسلام. ج.2: 94. رقم الحديث: 1358، ومسلم. د.ت. كتاب القدر. باب معنى كل مولود يولد على الفطرة وحكم موت أطفال الكفار وأطفال المسلمين. ج.4: 2047. رقم الحديث: 2658.

الترهيب لكل من خالف الفطرة الصحيحة.

المطلب الثاني: تحذيره من الأمور المخالفة للعقيدة

عاش ابن باديس في مجتمع يسوده الجهل والانحراف والضلال، ووصف ذلك الواقع عند تفسيره لقوله سبحانه: ﴿قُلِ ٱدۡعُواْ ٱلَّذِينَ زَعَمۡتُم مِّن دُونِهِۦ فَلَا يَمۡلِكُونَ كَشۡفَ ٱلضُّرِّ عَنكُمۡ وَلَا تَحۡوِيلًا ۝٥٦ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ يَدۡعُونَ يَبۡتَغُونَ إِلَىٰ رَبِّهِمُ ٱلۡوَسِيلَةَ أَيُّهُمۡ أَقۡرَبُ وَيَرۡجُونَ رَحۡمَتَهُۥ وَيَخَافُونَ عَذَابَهُۥٓۚ إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ كَانَ مَحۡذُورٗا ۝٥٧﴾[230]، فقال متحسرًا: "فانظر إلى حالتنا معشر المسلمين الجزائريين وغير الجزائريين، تجد السواد الأعظم من عامتنا غارقًا في هذا الضلال: فتراهم يدعون مَن يعتقدون فيهم الصلاح من الأحياء والأموات، يسألونهم حوائجهم من دفع الضر، وجلب النفع، وتيسير الرزق، وإعطاء النسل، وإنزال الغيث، وغير ذلك مما يسألون، ويذهبون إلى الأضرحة التي شُيّدت عليها القباب، أو ظلمت بها المساجد فيدعون من فيها، ويدقون قبورهم، وينذرون لهم، ويستثيرون حميتهم، بأنهم خدّامهم وأتباعهم، فكيف يتركونهم؟ وقد يهددونهم بقطع الزيارة، وحبس النذور. فأعمالهم هذه من دعائهم وتوجههم كلها عبادة لأولئك المدعوّين، وإن لم يعتقدوها عبادة؛ إذ العبرة باعتبار الشرع، لا باعتبارهم"[231].

فعدّد أمورًا يحصل بها الشرك مثل دعاء الأموات، والنذر لهم، وهذه العبادات لا تكون إلا لله ﷻ؛ لأنّ الدعاء عبادة، ومعناه استدعاء العبد ربه ﷻ العناية واستمداده إياه المعونة، وحقيقة الدعاء إظهار الافتقار إلى الله، والتبرؤ من الحول والقوة، وهذه من سمات العبودية، التي لا تكون إلا لله ﷻ[232].

وما ذكره ابن باديس لا يزال في مجتمعاتنا الإسلامية، ويحتاج إلى جهود مكثفة من الدعاة بتوعية

---

[230]. القرآن. الإسراء 17: 56-57.

[231]. ابن باديس. 1995م. *تفسير ابن باديس*. ص. 119.

[232]. الخطابي. أبو سليمان حمد بن محمد. 1992م. *شأن الدعاء*. القاهرة: دار الثقافة العربية. ط.2. ص.4.

المسلمين بخطر الشرك بالله ﷻ، وأهمية التوحيد في حياة المسلم.

وقد بذل ابن باديس جهودًا عظيمة في محاربة أنواع الشرك التي انتشرت في مجتمعه، ومن جهوده في ذلك تنزيل الآيات على الواقع في الجوانب الآتية:

1- **النهي عن دعاء غير الله:** فقد شهد عصره ناقضًا من نواقض العقيدة، وهو دعاء الأموات، وطلب الحوائج منهم، والاستغاثة بهم -كما تحدّث عن ذلك بنفسه- عند تفسيره لقول الله ﷻ: ﴿أُولَٰئِكَ الَّذِينَ يَدْعُونَ يَبْتَغُونَ إِلَىٰ رَبِّهِمُ الْوَسِيلَةَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ وَيَرْجُونَ رَحْمَتَهُ وَيَخَافُونَ عَذَابَهُ ۚ إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ كَانَ مَحْذُورًا ﴿٥٧﴾﴾[233]، فذكر أنه يعرف كثيرًا من الصالحين ﷺ تعالى شُيّدت عليهم القباب، ونُذرت لهم النذور[234]، وقُصِدوا لقضاء الحاجات، ودُعوا في المهمات، وكل ذلك مما أحدثه المحدثون بعدهم، ممن ينتمون إليهم، ثمّ ذكر أنّ هؤلاء الصالحين برآء من إثم ذلك كله، وأنّ إثمه على فاعليه[235].

وحذّرهم كذلك من دعاء الملائكة والجن المسلمين وعباد الله الصالحين؛ لأنّ دعاء غير الله شرك والله ﷻ يقول: ﴿وَأَنَّ الْمَسَاجِدَ لِلَّهِ فَلَا تَدْعُوا مَعَ اللَّهِ أَحَدًا ﴿١٨﴾﴾[236] والذي يدعو غائبًا لا يدعوه إلا لاعتقاده أنه يعلم الغيب، ولا يعلم الغيب إلا الله، وبيّن لهم أنّ هذا العمل سبب للخيبة والحسرة يوم القيامة، وأمرهم

---

[233]. القرآن. الإسراء 17: 57.

[234]. النذر من العبادات التي لا يجوز أن تُصرف لغير الله ﷻ، ولا يجوز النذر للميت بقصد قضاء الحاجة، أو شفاء المريض، جاء في كتاب الدر المختار: "واعلم أنّ النذر الذي يقع للأموات من أكثر العوام وما يؤخذ من الدراهم والشمع والزيت ونحوها إلى ضرائح الأولياء الكرام تقربا إليهم فهو بالإجماع باطل وحرام" الحصكفي. محمد بن علي بن محمد الحِصْني. 2002. *الدر المختار شرح تنوير الأبصار وجامع البحار*. لبنان: دار الكتب العلمية. ص.151. وذكر ابن عابدين أن سبب التحريم: "أنه نذر لمخلوق والنذر للمخلوق لا يجوز لأنه عبادة والعبادة لا تكون لمخلوق. ومنها أن المنذور له ميت والميت لا يملك". انظر: ابن عابدين: محمد أمين بن عمر. 1992. *رد المحتار على الدر المختار*. بيروت: دار الفكر. ط.2. ج.2. ص.439.

[235]. ابن باديس. 1995م. *تفسير ابن باديس*. ص.121.

[236]. القرآن. سورة الجن 72: 18.

بتعظيم الله ﷻ وحده، وتوحيده بالدعاء دون غيره. وجعل عنوانًا جانبيًا بعد تفسيره للآية السابقة: (عبرة وتحذير) ثم ذكر أنّ في يوم القيامة سيأتي أولئك الذين كانوا يدعون الملائكة والجن المسلمين وعباد الله الصالحين، ويحسبون أنهم ينفعونهم في ذلك اليوم، فيتبرأ منهم أولئك الذين كانوا يعبدونهم بدعائهم، ويتركونهم في ذلك الموقف العصيب، ولن يجدوا سوى الحسرة والخيبة والخسران. ثم حذّر الناس من هذه العاقبة السيئة، وهذا الموقف المخزي، ودعاهم إلى توحيد الله بالدعاء، والاقتصار في جانب الصالحين على محبتهم، والترضية عليهم، وسؤال الرحمة لهم، والاقتداء بهم فيما كان منهم من طاعة وخير، وعدم تعظيمهم بما لا يكون إلاّ لله رب العالمين، ولو كان هؤلاء الصالحين الذين يدعونهم من دون الله أحياء لأنكروا عليهم، ولم يؤيدوهم على هذا الفعل؛ لعلمهم أنه من أنواع الشرك[237].

وحذّر القرّاء الذين يجهلون الأحكام الشرعية من دعاء غير الله ﷻ، وأمرهم بتعليم غيرهم ممن يجهلون هذه الأحكام، ونشر هذه الحقائق بين إخوانهم المسلمين بما استطاعوا، عسى أن يتنبّه الغافل، ويتعلّم الجاهل، حتى يؤدوا أمانة العلم، ويقوموا بفريضة النصح، ويخدموا الإسلام والمسلمين[238].

وتنزيله للآية السابقة تنزيلًا صريحًا صحيحًا، فدعاء الأموات يعدّ شركًا أكبر، وهو من أعمال الجاهلية، والله ﷻ يقول: ﴿فَلَا تَدۡعُواْ مَعَ ٱللَّهِ أَحَدٗا ١٨﴾[239] لا ملكًا ولا نبيًا ولا وليًا، فمن دعا غير الله فيما يعجز هو وأمثاله عنه من طريق الأسباب كالشفاء من المرض بغير التداوي، وتسخير قلوب الأعداء، والإنقاذ من النار ودخول الجنة وما أشبه ذلك من المنافع ودفع المضار، فقد اتخذه إلهًا؛ لأنّ الإله هو

---

237. ابن باديس. 1995م. *تفسير ابن باديس*. ص.121- 122.

238. المرجع السابق. ص. 119- 120.

239. القرآن. الجن 72: 18.

المعبود[240].

2- **النهي عن الألفاظ التي تخالف العقيدة:** تداول بعض أفراد الشعب الجزائري ألفاظًا شركية قد تكون بسبب الجهل، أو التقليد لغيرهم، فتنبّه لذلك ابن باديس، وعند تفسيره لقول الله ﷻ: ﴿وَٱلَّذِينَ لَا يَدۡعُونَ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ وَلَا يَقۡتُلُونَ ٱلنَّفۡسَ ٱلَّتِي حَرَّمَ ٱللَّهُ إِلَّا بِٱلۡحَقِّ وَلَا يَزۡنُونَۚ وَمَن يَفۡعَلۡ ذَٰلِكَ يَلۡقَ أَثَامٗا ٦٨﴾[241]، أكّد على أنّ المسلم ينبغي عليه أن يدعو الله ﷻ وحده، ثم ذكر أنه كثيرًا ما يسمع في دعاء الناس كلمات فيها دعاء لغير الله، مثل (يا ربي والشيخ)، (يا ربي وناس ربي)، (يا ربي والناس الملاح)، ثم حذّر الناس من ذلك، وأمرهم بدعاء الله ﷻ وحده دون شريك[242].

والتنزيل في هذه الآية تنزيل عكسي جزئي؛ فالله ﷻ ذكر في الآية أنّ من صفات عباد الرحمن أنهم لا يدعون مع الله إلهًا آخر، وهنا يذكر ابن باديس ما يقع في مجتمعه من دعاء غير الله، ثم يعالجه بجزء من هذه الآية، وقد يظنّ بعض الناس أنّ ابن باديس تعسّف في جعل هذه الكلمات من الشرك؛ وهي تجري على ألسنة الناس دون نية شركية، لكن ربما أنّ حجم الشرك المنتشر في مجتمعه جعله يحارب كل صورة شركية، صغرت أو كبرت؛ حتى لا تنتشر هذه الكلمات وتتطور إلى أفعال بعد ذلك، وعلى الدعاة إلى الله تتبّع مثل هذه الكلمات في مجتمعهم، وتنبيه الناس من تداولها.

3- **النهي عن مظاهر الشرك:** حثّ ابن باديس الناس على تنزيه الله ﷻ، والبراءة من الشرك والمشركين، فعند تفسيره لقول الله ﷻ: ﴿قُلۡ هَٰذِهِۦ سَبِيلِيٓ أَدۡعُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِۚ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ

---

240. ابن عاشور. محمد الطاهر بن محمد. 1984. *التحرير والتنوير*. تونس: الدار التونسية للنشر. ج.8. ص. 407.

241. القرآن. الفرقان 25: 68.

242. ابن باديس. 1995م. *تفسير ابن باديس*. ص. 222.

أَنَا۠ وَمَنِ ٱتَّبَعَنِى ۖ وَسُبْحَٰنَ ٱللَّهِ وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿١٠٨﴾[243] أوضح للناس أنّ النبي ﷺ كان يدعو إلى الله وينزّهه، وفي الوقت ذاته يُعلن براءته من المشركين، وأنه ليس منهم، براءة من عقيدتهم، وأقوال وأعمال شركهم، فهو مُباين لهم في العقيدة، والقول، والعمل، مباينة الضد للضد، لتأكيد البُعد عن الشرك بجميع وجوهه وصوره، جليّة وخفيّة في جميع مظاهر شركه، وقد تكون هذه المظاهر في صورة القول، مثل: (شاء الله وشاء فلان)، أو في صورة الفعل: كأن يسوق بقرة أو شاة مثلًا إلى ضريح من الأضرحة، ليذبحها عنده، أو اعتقاد: كاعتقاد أنّ هناك ديوانًا من عباد الله يتصرف في ملك الله، وأنّ المذنب لا يدعو الله وإنما يسأل من يعتقد فيه الخير من الأموات، وذلك الميت يدعو له الله[244].

والشرك ينافي التوحيد الذي هو الغاية العظمى التي خلق الله لأجلها العباد، ولذا فإنّ ابن باديس في تفسير الآيات السابقة تتبّع مظاهر الشرك في مجتمعه، وحذّرهم منها، ودعاهم إلى الابتعاد عن أسبابه، ومن هذه المظاهر: الاستغاثة بغير الله، سواء بالجن أو الملائكة أو بالأموات من الصالحين، وبيّن للناس براءة الصالحين مما يفعله الناس بعد موتهم من تعظيمهم والاستغاثة بهم، وفي تفسيره دعوة صريحة إلى نبذ الشرك بجميع مظاهره.

وهذه المظاهر قد تحتاج أحيانًا إلى جهود مؤسسية، وإلى تدخُّل من الدولة، عندما تكون شديدة الظهور، فلا يكفي كلمات الدعاة، بل تحتاج إلى قوة تردعها، لكنّ ابن باديس أدّى الدور الذي وجب عليه.

المطلب الثالث: التحذير من البدع التي أحدثها الناس في زمانه

---

243. القرآن. يوسف 12: 108.

244. ابن باديس. 1995م. *تفسير ابن باديس*. ص. 317 -318.

حارب ابن باديس البدع[245] المنتشرة في عصره، كبدع بعض الطرق الصوفية وضلالاتها، وبدع المساجد والجنائز، وبدع الحج، وبدع النذور[246]، وأنكرها وسعى في بيان خطرها على المجتمع، ومما قاله في ذلك: "ونحارب على الخصوص البدع التي أدخلت على الدين الذي هو قوام الإخلاص فأفسدته، وعاد وبال ذلك الفساد علينا، وتأخرنا من حيث يكون تقدمنا، وسقطنا"[247]؛ لأنّ البدعة لها خطر عظيم، فالمبتدع يدّعي أنّ الدين فيه نقص ويحتاج إلى زيادة، وإن لم يصرّح بذلك، ولذلك فطّن ابن باديس مجتمعه بخطر البدعة عليهم، وكان له حركة قلمية في جريدة الشهاب يفضح بها دعاة الباطل من أهل البدع، فشنّع صنيعهم، وحذّر الشعب من خرافاتهم[248]، ونبههم لجملة من البدع، منها:

1- **الزيادة على العبادة:** لما فسر قوله تعالى: ﴿لَّا تَجْعَلُواْ دُعَآءَ ٱلرَّسُولِ بَيْنَكُمْ كَدُعَآءِ بَعْضِكُم بَعْضًا ۚ قَدْ يَعْلَمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ يَتَسَلَّلُونَ مِنكُمْ لِوَاذًا ۚ فَلْيَحْذَرِ ٱلَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِۦٓ أَن تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٦٣﴾﴾[249] أكّد على أنّ مِن أبيَن المخالفة عن أمره وأقبحها: الزيادة في العبادة التي نعبد الله بها، وإحداث مُحدثات على وجه العبادة في مواطن تمرّ علينا ولم يُتعبد بمثل ذلك المحدَث فيها، وكلا هذَين الأمرَين زيادة وإحداث وابتداع مذموم، يكون مرتكبه كمن يرى أنه اهتدى إلى طاعة لم يهتد إليها رسول الله

---

245. البدعة هي: "طريقة في الدين مخترعة، تضاهي الشرعية يقصد بالسلوك عليها المبالغة في التعبد لله سبحانه". الشاطبي. إبراهيم بن موسى بن محمد. 1992. *الاعتصام*. المملكة العربية السعودية: دار ابن عفان. ج.1. ص. 50.

246. جمعية العلماء المسلمين الجزائريين. 2009م. "موقف جمعية العلماء في البدع والمنكرات العامة". *سجل مؤتمر جمعية العلماء المسلمين الجزائريين*. دار المعرفة: قسم التصفيف. ص.52.

247. طالبي. 1968م. *آثار ابن باديس*. ج.3. ص.280.

248. حمياني. 1984م. *صراع بين السنة والبدعة*. ص.143.

249. القرآن. النور 24: 63.

ﷺ وسبق إلى فضيلة قَصر فيها رسول الله ﷺ، وهذا وحده يكفي ليكون فتنة وبلاء، إضافة إلى ما يجرّ إليه من بلايا أخرى[250].

وقد أحسن ابن باديس عند التنبيه من خطورة البدع؛ فالبدع تنافي كمال الدين، كما قال تعالى: ﴿ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلْإِسْلَٰمَ دِينًا﴾[251]، فالله ﷻ قد أكمل دينه، وجعل النبي ﷺ خاتم المرسلين فأتمّ به الدين، فلا يحتاج إلى زيادة، ومن زاد فيه شيئًا فهو مردود عليه، وقيّد الله ﷻ بعض العبادات بأوقات محدّدة، وأماكن محدّدة، وما جاء من العبادات مقيدًا يجب علينا أن نلتزم قيده، وكان ابن باديس ينبّه على هذا الأمر في غير كتابه مجالس التفسير، فبيّن للناس أنّ ما ورد من العبادة مقيدًا بقيد يلتزم قيده، وما ورد منها مُطلقًا يلتزم إطلاقه، فالذي يأتي بالعبادة المقيدة دون قيدها مخالف لأمر الشرع ووضعه، والذي يأتي بالعبادة المطلقة ملتزمًا فيها ما جعله بالتزامه كالقيد مخالف كذلك لأمر الشرع ووضعه، وهذا أصل في جميع العبادات[252].

2- **النهي عن الانحناء للسلاطين:** شاعت في عصر ابن باديس بعض الأمور الدالة على جهل الناس مثل الانحناء للسلاطين، فأنكرها وحاول إصلاحها في كتابته لمجالس التذكير، فعند تفسيره لقول الله ﷻ: ﴿أَلَّا يَسْجُدُوا۟ لِلَّهِ ٱلَّذِى يُخْرِجُ ٱلْخَبْءَ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَيَعْلَمُ مَا تُخْفُونَ وَمَا تُعْلِنُونَ ﴿٢٥﴾﴾[253]، كتب "تحذير: كثيرًا ما رأينا في الرسوم التي تنشرها الصحف أناسًا من المسلمين راكعين، أو مقاربين للسجود لذي سلطان، فعلى المسلم أن يحذر من ذلك

---

250. ابن باديس. 1995م. *تفسير ابن باديس*. ص.338.

251. القرآن. المائدة 5: 3.

252. طالبي. 1968م. *آثار ابن باديس*. ج.2. ص.266.

253. القرآن. النمل27: 25.

فلا يفعله، ولا ينحني لأحد من الخلق، وأن ينكره إذا رآه"[254].

وما قاله في هذا التنزيل يؤيده حديث أنس بن مالك، قال: قال رجل: «يَا رَسُولَ اللهِ الرَّجُلُ مِنَّا يَلْقَى أَخَاهُ أَوْ صَدِيقَهُ أَيَنْحَنِي لَهُ؟ قَالَ: لاَ، قَالَ: أَفَيَلْتَزِمُهُ وَيُقَبِّلُهُ؟ قَالَ: لاَ، قَالَ: أَفَيَأْخُذُ بِيَدِهِ وَيُصَافِحُهُ؟ قَالَ: نَعَمْ»[255].

وقد اختلف العلماء في حكم الانحناء لغير الله، فمنهم من قال أنّ النهي للكراهة، كالإمام النووي، فقد قال بكراهية حني الظهر في كل حال لكل، للحديث السابق[256]، وقال الشربيني بمثله[257].

ومنهم من قال بحرمة ذلك كالبجيرمي فقد ذكر أنّ: "الانحناء لمخلوق كما يفعل عند ملاقاة العظماء حرام عند الإطلاق أو قصد تعظيمهم لا كتعظيم الله، وكفر إن قصد تعظيمهم كتعظيم الله تعالى"[258]، وقال ابن علان: "من البدع المحرمة الانحناء عند اللقاء بهيئة الركوع"[259]

المطلب الرابع: التحذير من اليأس من رحمة الله

نهانا الله ﷻ عن اليأس والقنوط من رحمته؛ لأنّ اليأس فيه سوء ظن بالله ﷻ، والإنسان اليائس جاهل بصفات الله ﷻ، وقد يصل إلى الكفر إذا انعدم الرجاء، كما قال تعالى: ﴿إِنَّهُۥ لَا يَاْيْـَٔسُ مِن

---

254. ابن باديس. 1995م. *تفسير ابن باديس*. ص.276.

255. الترمذي. محمد بن عيسى بن سَوْرة بن موسى. 1998م. *سنن الترمذي*. أبواب الاستئذان والآداب. باب ما جاء في المصافحة. بيروت: دار الغرب الإسلامي. ج.4. ص.372. رقم الحديث: 2728. وهو حديث حسن. حسنه الألباني وأحمد شاكر.

256. النووي. د. ت. *المجموع شرح المهذب*. ج.4. ص. 535.

257. الخطيب الشربيني. شمس الدين، محمد بن أحمد. 1994. *مغني المحتاج إلى معرفة معاني ألفاظ المنهاج*. لبنان: دار الكتب العلمية. ج.4. ص. 218.

258. البُجَيْرَميّ. سليمان بن محمد بن عمر. 1995. *تحفة الحبيب على شرح الخطيب -حاشية البجيرمي على الخطيب-*. دمشق: دار الفكر. ج.4. ص.241.

259. ابن علان. محمد علي بن محمد. 2004. *دليل الفالحين لطرق رياض الصالحين*. بيروت: دار المعرفة للطباعة والنشر والتوزيع. ط.4. ج.6. ص. 363.

رَّوۡحِ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلۡقَوۡمُ ٱلۡكَٰفِرُونَ ﴿٨٧﴾﴾[260] وقد بدا ذلك واضحًا عند تفسير ابن باديس لقول الله ﷻ: ﴿وَإِذَآ أَنۡعَمۡنَا عَلَى ٱلۡإِنسَٰنِ أَعۡرَضَ وَنَـَٔا بِجَانِبِهِۦ وَإِذَا مَسَّهُ ٱلشَّرُّ كَانَ يَـُٔوسًا ﴿٨٣﴾﴾[261]، فذكر لنا أنّ الله ﷻ ذمّ هذَين الوصفَين في كتابه، وهما: الإعراض عن النعمة، واليأس من الرحمة، ثم ذكر أنهما فاشِيَان في أكثر الناس على تفاوت بينهم، على حسب ما عندهم من إيمان وعمل صالح، وقد حذّرنا الله في كتابه منهما ومن سوء عواقبهما؛ لأنّ الإعراض عن النعمة كفر بها ومقتضٍ لسلبها، واليأس من رحمة الله جهل به، وكفر بما هو متقلب فيه من نعمه وموجب لانطماس القلب، وانقطاع الأعمال، لذا وجب علينا الحذر من الوقوع فيهما. [262].

وابن باديس ذكر هنا أنّ المراد بالإعراض هو الإعراض عن النعمة وهذا مخالف لما قاله المفسرون بأنّ المراد بالإعراض في الآية هو الإعراض عن ذكر الله ﷻ، وشكر المنعم[263]، وهذا ليس من أخلاق المؤمنين.

ونبّه كذلك على اليأس الذي كان متفشيًا -حسب قوله في تفسير الآية- وقد يعود سببه إلى قلة الصبر على ما أصاب مجتمعه فترة الاستعمار الفرنسي، واستعجال نتائج الفرج، لا سيما مع اشتداد البلاء وضعف الإيمان عند البعض منهم.

خلاصة المبحث:

1- اهتمام ابن باديس بتنزيل آيات العقيدة على واقع الناس؛ فكلما أمعن في تفسير آية تتحدث

---

260. القرآن. يوسف 12: 87.

261. القرآن. الإسراء 17: 83.

262. ابن باديس. 1995م. *تفسير ابن باديس*. ص. 148- 149.

263. الطبري. 2001م. *جامع البيان عن تأويل آي القرآن*. ج.17. ص.539. الثعلبي. أحمد بن محمد بن إبراهيم. 2002. *الكشف والبيان عن تفسير القرآن*. بيروت: دار إحياء التراث العربي. ج.6. ص.129. البغوي. أبو محمد الحسين بن مسعود. 1420 هـ. *معالم التنزيل في تفسير القرآن*. بيروت: دار إحياء التراث العربي. ج.3. ص.158.

عن العقيدة ربطها بالعمل.

2- حرصه على حث الناس على العمل بالقرآن؛ فبعد تفسيره للآية يُشير إلى أبعادها، وكيف نستفيد منها في علاج مشكلات العصر، لا سيما إن كانت تتحدث عن العقيدة التي هي الأساس الذي يقوم عليه الدين.

3- يستخدم ابن باديس التنزيل العكسي للآية إذا رأى أن ما يحدث في واقعه يخالف ما جاء فيها.

UNIVERSITI SAINS ISLAM MALAYSIA
جامعة العلوم الإسلامية الماليزية
ISLAMIC SCIENCE UNIVERSITY OF MALAYSIA

المبحث الثاني

تنزيل الآيات على الواقع في مجال الدعوة

تمهيد:

تبيّن في بداية هذا البحث الحالة الدينية والثقافية التي كانت تعيشها الجزائر في ظل الاستعمار الفرنسي الذي عمل على تخريب العلم والأفكار والأشخاص، فرأى ابن باديس ﵀ أنّ التحرر من ذلك لا يكون إلا بالرجوع إلى القرآن والسنة، وأنّ تذكير الناس يكون بهما؛ لأنّ القرآن وبيانه القولي والعملي من سنة النبي ﷺ بهما يكون تذكير العباد ودعوتهم لله رب العالمين، ومن حاد في التذكير عنهما ضلّ وأضلّ، وكان ما يضر أكثر مما ينفع[264].

وقد صنع ابن باديس دعاة لمجتمعه؛ بعد أن أسّسهم على العلم الصحيح، والفكر الصحيح، فأصبحوا من الدعاة المصلحين، ومن العلماء العاملين، والقادة المؤمنين فأصبح هؤلاء الدعاة ينشرون الدعوة، ويعملون على إصلاح مجتمعهم، وكان ابن باديس يُشرف عليهم، ويحثهم على قول كلمة الحق، وإرشاد الناس إلى الطريق المستقيم[265]، وبعد قراءة تفسيره تبيّن أنّه اهتم بتنزيل الآيات على الواقع في مجال الدعوة، وإن لم تكن قد حدثت واقعة معيّنة ذكرها صراحةً؛ لكنه أشار إلى ذلك تلميحًا وعملًا، فمجتمعه كان بحاجة إلى معرفة أهمية الدعوة إلى الله، وأساليبها، وصفات الداعية الناجح، حتى ينهض المجتمع مرة أخرى، بعد أن دمّره الاستعمار من كل النواحي.

---

264. طالبي. 1968م. *آثار ابن باديس*. ج.1. ص.127.

265. المدني. أحمد توفيق. 1977م. "عبد الحميد ابن باديس الرجل العظيم". *مجلة الأصالة*. عدد (44). أبريل. ص.68-69.

ويتضح ذلك من خلال المطالب الآتية:

المطلب الأول: الدعوة إلى الله مسؤولية كل مسلم

رأى ابن باديس أنّ الدعوة إلى الله هي مسؤولية كل مسلم، وأنّ المسلمين أفرادًا وجماعات، عليهم أن يقوموا بالدعوة إلى الله، والمسلم المتبع للنبي ﷺ لا يألو جهدًا في الدعوة إلى كل ما عرف من سبيل ربه، وبقيام كل واحد من المسلمين بهذه الدعوة بما استطاع[266].

والدعوة إلى الله تحتاج إلى تأهّل، وإن كانت الدعوة إلى الله مسؤولية كل مسلم؛ إلا أنّ هذا يعني أنّ كل مسلم يدعو بما يحسن من المسائل؛ لأنّ الدعوة دون تأهّل تُفضي إلى القول على الله بغير علم[267].

وقد اختلف العلماء هل الدعوة إلى الله واجبة على كل مسلم؟ ويرجع سبب الخلاف إلى اختلافهم في قوله (منكم) في قوله تعالى: ﴿وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى ٱلْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ ۚ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿١٠٤﴾﴾[268] فمن قال أنّ من للتبعيض قال أنّ الدعوة إلى الله فرض كفاية، ومن قال أنها للجنس قال أنها واجبة على كل مسلم، ورجّح أنها للتبعيض[269]، وقال ابن كثير في تفسير هذه الآية: أنّ الدعوة إلى الله واجبة على كل فرد بحسبه[270]، وقال ابن عاشور: إن الدعوة إلى الخير تتفاوت: فمنها ما هو بين يقوم به كل مسلم، ومنها ما يحتاج إلى علم فيقوم به أهله، وهذا هو المسمى بفرض الكفاية، يعني إذا قام به بعض الناس كفى عن قيام الباقين، وتتعين الطائفة التي تقوم بها بتوفر شروط القيام

---

266. ابن باديس. 1995م. *تفسير ابن باديس*. ص.314، ص.319.

267. المرجع السابق. ص.189.

268. القرآن. آل عمران 3: 104.

269. القرطبي. أبو عبد الله محمد بن أحمد. 1964م. *الجامع لأحكام القرآن*. القاهرة: دار الكتب المصرية. ج.4. ص.165.

270. ابن كثير. أبو الفداء إسماعيل بن عمر. 1999. *تفسير القرآن العظيم*. الرياض: دار طيبة للنشر والتوزيع. ج.2. ص.91.

بمثل ذلك الفعل فيها، فإذا قام به العدد الكافي ممن فيهم الشروط سقط التكليف عن الباقين، وإذا لم يقوموا به كان الإثم على البلد أو القبيلة، لسكوت جميعهم، ولتقاعس الصالحين للقيام بذلك[271]، وقد أحسن ابن عاشور؛ حيث فصّل في المسألة، فهناك أمور من الدين لا يجهلها أحد، وعلى من علمها أن يبلغها بحسب علمه، امتثالًا لقول النبي ﷺ: «بَلِّغُوا عَنِّي وَلَوْ آيَة»[272].

المطلب الثاني: صفات الداعية

استنبط ابن باديس ﷺ صفات الداعية التي ينبغي أن يتصف بها، وذلك عند تفسيره للآيات المتعلقة بالدعوة، ومن هذه الصفات:

1- أن يدعو إلى الله على بصيرة، وأن يسير على منهج رسول الله ﷺ، وذلك من خلال تفسيره لقول الله ﷻ: ﴿أَدْعُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِۚ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ أَنَا۠ وَمَنِ ٱتَّبَعَنِيۖ﴾[273]، حيث وجّه الدعاة إلى أن تكون دعوتهم على بيّنة وحجة وإيمان ويقين، وأن تكون وفقًا لدعوة رسول الله ﷺ وتبعًا لها[274]. وأن يدعوا إلى الله على علم وبصيرة، وأشار إلى هذا عند تفسير قول الله ﷻ: ﴿وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌۚ﴾[275]، فلا يصح للمرء أن يتبع ما لا علم له به، فلا يكن منه اتباع بالقول، أو بالفعل، أو بالقلب، لما لا يعلم؛ وقد نهانا الله ﷻ عن أن نعتقد إلّا عن علم،

---

271. ابن عاشور. 1984. *التحرير والتنوير*. ج.4. ص.40.

272. البخاري. 1422هـ. *صحيح البخاري*. كتاب: أحاديث الأنبياء. باب ما ذكر عن بني إسرائيل. ج.4. ص. 170. رقم الحديث: 3461.

273. القرآن. يوسف 12: 108.

274. ابن باديس. 1995م. *تفسير ابن باديس*. ص.314.

275. القرآن. الإسراء 17: 36.

أو نفعل إلّا عن علم، أو نقول إلّا عن علم[276].

وتنزيله هذا يدلّ على اهتمامه بأصول الدعوة إلى الله، ومنها العلم الذي هو من أهم صفات الداعية، قال ابن القيم: "وإذا كانت الدعوة إلى الله أشرف مقامات العبد وأجلها وأفضلها: فهي لا تحصل إلا بالعلم الذي يدعو به وإليه، بل لا بد في كمال الدعوة من البلوغ في العلم إلى حد أقصى يصل إليه السعي"[277]

2- أن يتصف الداعية بالرحمة والإحسان والصدق والأمانة، وقد أشار إلى هذه الصفات بعد تفسيره لقول الله ﷻ: ﴿أَدْعُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِۚ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ أَنَا۠ وَمَنِ ٱتَّبَعَنِيۖ﴾[278]، حيث جعل ظهور المسلمين- أفرادًا وجماعات- بما في دينهم من عفة وفضيلة، وإحسان ورحمة وعلم وعمل وصدق وأمانة؛ من الدعوة إلى الله، لأنّ هذا أعظم مُرغِّب للأجانب في الإسلام، وضده أعظم منفِّر لهم عنه، وما انتشر الإسلام أول أمره بين الأمم، إلّا لأنّ الداعين إليه كانوا يدعون بالأعمال، كما يدعون بالأقوال، وما زالت الأعمال دليلًا على الأقوال[279].

وهذه نقطة مهمة في نجاح الدعوة، فيُلاحظ في واقعنا من يتصدى للدعوة وهو بحاجة إلى تربية نفسه بالأخلاق الإسلامية، فيكون لدعوته نتيجة عكسية؛ فيُصبح منفرًا وليس مؤثرًا، ونحن بحاجة إلى من يرغّب الناس في دينهم، ولا يكون ذلك إلا بدعوتهم بالحسنى.

3- عدم التكلف في طريقة الكلام والاستشهاد بالأحاديث المنكرة والموضوعة، وقد حذّر الخطباء من ذلك بقوله: "أكثر الخطباء في الجمعات اليوم في قطرنا يخطبون الناس بخطب معقّدة،

---

276. ابن باديس. 1995م. *تفسير ابن باديس*. ص.103.

277. ابن القيم. محمد بن أبي بكر بن أيوب. 1410. *تفسير القرآن الكريم*. بيروت: دار ومكتبة الهلال. ص. 332.

278. القرآن. يوسف 12: 108.

279. ابن باديس. 1995م. *تفسير ابن باديس*. ص. 315.

مسجعة طويلة، من مخلفات الماضي، لا يُراعى فيها شيء من أحوال الحاضر وأمراض السامعين[280]، تُلقى بترنّم وتلحين، أو غمغمة وتمطيط، ثم كثيرًا ما تُختم بالأحاديث المنكرات، أو الموضوعات. هذه حالة بدعية في شعيرة من أعظم الشعائر الإسلامية، سدّ بها أهلها بابًا عظيمًا من الخير فتحه الإسلام، وعطّلوا بها الوعظ والإرشاد، وهو ركن عظيم من أركان الإسلام، فحذارِ أيها المؤمن مِن أن تكون مثلهم إذا وقفت خطيبًا في الناس، وحذارِ مِن أن تترك طريقة القرآن والمواعظ النبوية إلى ما أحدثه المحدِثون"[281].

4- مراعاة أحوال الزمان والمكان، ودعوة الناس على قدر عقولهم، فحث على مراعاة آداب القول الشرعية، ومقتضيات الزمان، والمكان، والحال؛ لأننا أُمِرنا أن نُحدّث الناس، بما يفهمون[282].

وهذا يحتاج إلى ذكاء الداعية، فيراعي مقتضى الحال، وتفاوت الناس في علمهم وعقولهم وطبائعهم، وعاداتهم وتقاليدهم، وكذلك الأوقات المناسبة لهم؛ وكل ذلك ينعكس على قبولهم لدعوته.

المطلب الثالث: أساليب الدعوة إلى الله

أساليب الدعوة: هي العلم الذي يتصل بكيفية مباشرة تبليغ الدعوة وكيفية تطبيق مناهج الدعوة[283]، وقد استنبط ابن باديس ﷺ طرق وأساليب الدعوة إلى الله عند تفسيره لقوله تعالى: ﴿ٱدۡعُ إِلَىٰ سَبِيلِ

---

280. هذا النص من كلام ابن باديس يحثّ الخطباء بفقه واقعهم، وما يحدث فيه من مستجدات، خاصة وأنّ المجتمعات الإسلامية تشهد غزوًا فكريًا على مدى العصور، وهي بحاجة إلى ترشيد وتوجيه مستمر، لذا وجب على الدعاة والخطباء مواجهة هذه المستجدات، والتسلح بالعلم والفهم العميق لكتاب الله وسنة رسوله ﷺ، وهذا يقتضي أن يجمع الداعية بين التراث وقضايا العصر، فيأخذ منه ما يعالج به قضايا مجتمعه.

281. ابن باديس. 1995م. *تفسير ابن باديس*. ص.324.

282. المرجع نفسه. 103.

283. القحطاني. سعيد بن علي بن وهب. 1421هـ. *فقه الدعوة في صحيح الإمام البخاري*. المملكة العربية السعودية: الرئاسة العامة لإدارات البحوث العلمية والإفتاء والدعوة والإرشاد. ج.2. ص.1121.

رَبِّكَ بِٱلۡحِكۡمَةِ وَٱلۡمَوۡعِظَةِ ٱلۡحَسَنَةِۖ وَجَٰدِلۡهُم بِٱلَّتِي هِيَ أَحۡسَنُۚ﴾[284]، حيث وضّح لنا أنّ الآية الكريمة جاءت في بيان كيفية الدعوة، وبماذا تُؤدى؟ وكيف يُدافع عنها؟ مع ذكر الداعي والمدعو إليه، وفصّل في الأساليب التي أشارت إليها الآية الكريمة، وهي كما يلي:

1- الحكمة.

2- الموعظة الحسنة.

3- المجادلة بالتي هي أحسن.

وهذا بيانها بشيء من التفصيل حسب ترتيبها:

أولًا: الحكمة

وجّه ابن باديس نصيحة إلى الدعاة بأن تكون دعوتهم بالحكمة، وأن يمتثلوا أمر الله ﷻ في الآية السابقة، وربط الآية الكريمة بواقعهم وكيف يستفيدون منها قائلًا لهم: "هدتنا الآية الكريمة إلى أسلوب الدعوة: وهو الحكمة، وتجلّت هذه الحكمة في الآيات القرآنية والأحاديث النبوية، فعلينا أن نلزمها جهدنا حيثما دعونا، ونقتدي بأساليب القرآن والسنة في دعوتنا، فيما يحصل الفهم واليقين، والفقه في الدين والرغبة في العمل والدوام عليه، وها نحن قد بلغ الحال بنا إلى ما بلغ إليه من الجهل بحقائق الدين، والجمود في فهمه، والإعراض عن العمل به، والفتور في العمل، فحق على أهل الدعوة إلى الله -وخصوصًا المعلمين- أن يقاوموا ما بيَّنَّا من جهل وجمود وإعراض وفتور، بالتزام البيان للحقائق العلمية بأدلتها، والعقائد ببراهينها، والأخلاق بمحاسنها، والأعمال بمصالحها"[285].

ثم عرّف الحكمة بأنها: العلم الصحيح الثابت، المثمر للعمل المتقن المبني على ذلك العلم. وذكر

---

[284]. القرآن. النحل 16: 125.

[285]. القحطاني. 1421هـ. *فقه الدعوة في صحيح الإمام البخاري*. ج.2. ص.321.

أنواع الحكمة التي يتصف بها الداعية ومن تلك الصفات:

1- العقائد الحقة والحقائق العلمية الراسخة في النفس رسوخًا تظهر آثاره على الأقوال والأعمال.

2- الأعمال المستقيمة، والكلمات الطيبة التي أثمرتها تلك العقائد.

3- الأخلاق الكريمة كالحلم والأناة.

4- البيان عما سبق بالكلام الواضح الجامع[286].

والملاحظ أنّ ابن باديس نزّل الآيات السابقة على واقع الدعاة تنزيلًا صريحًا، وتوسّع في ذلك؛ لأهمية الدعوة في إصلاح المجتمع الذي كان يسعى جاهدًا إلى تغييره، والداعية الحكيم هو الذي يدرس ويعرف أحوال المدعوين: الاعتقادية، والنفسية والاقتصادية، والاجتماعية، والعلمية، ويعرف مواطن الانحراف، وعاداتهم ولغتهم ولهجاتهم، والإحاطة بمشكلاتهم، ونزعاتهم الخلقية، والشبهات التي تعلق بأذهانهم، ثم ينزل الناس منازلهم ويدعوهم على قدر عقولهم وأفهامهم، ويعطي الدواء على حسب الداء[287].

ثانيًا: الموعظة الحسنة

عرّف ابن باديس الموعظة بأنها الكلام الملين للقلب، بما فيه من ترغيب وترهيب فيحمل السامع على فعل ما أمر به وترك ما نهي عنه. ثم ذكر الأمور التي تكون بها الموعظة، ومنها:

1. ذِكْر أيام الله في الأمم الخالية، واليوم الآخر، وما يتقدمه، وما يكون فيه من مواقف الخلق وعواقبهم، ومصيرهم إلى الجنة أو النار، وما في الجنة من نعيم، وما في النار عن عذاب أليم، ووعد الله ووعيده.

---

286. ابن باديس. 1995م. *تفسير ابن باديس*. ص. 319- 320.

287. القحطاني. سعيد بن علي بن وهف. 1423هـ. *الحكمة في الدعوة إلى الله تعالى*. (رسالة ماجستير). المملكة العربية السعودية: جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية. ج.2. ص.566.

2. تذكير الإنسان بأحوال نفسه، ليعامل غيره بما يحب أن يعامل به.

ثم بيّن للدعاة أنّ المقصود من الموعظة الحسنة يحصل إذا حسن لفظها؛ بوضوح دلالته على معناها، وحسن معناها بعظيم وقعه في النفوس، فاستقرّت في القلوب، وبلغت مبلغها من دواخل النفس البشرية، فأثارت الرغبة والرهبة، وبعثت الرجاء والخوف، بلا تقنيط من رحمة الله، ولا تأمين من مكره، وانبعثت عن إيمان ويقين، ونادت بحماس وتأثّر، فتلقّتها النفس من النفس، وتلقّفها القلب من القلب، إلاّ نفسًا أحاطت بها الظلمة، وقلبًا عَمَى عليه الران[288].

ثالثًا: الجدال بالتي هي أحسن

يواجه الداعية في كل زمان ومكان من يقف في طريقه إما بالقول أو العمل، وهنا يلفت ابن باديس نظر الدعاة إلى ذلك، وينبههم بأنّ كل داعية إلى الحق يجد معارضة من دعاة الباطل، ويلقى منهم استطالة بالأذى والسفاهة[289]؛ فيضطر إلى ردّ باطلهم، ودحض شبههم، وهذا هو جدالهم الذي أمر الله ﷻ به نبيه ﷺ بقوله: ﴿وَجَٰدِلۡهُم بِٱلَّتِي هِيَ أَحۡسَنُۚ﴾[290]، ثم ربط هذه الآية بواقع الدعاة وبيّن لهم كيف يكون الجدال بالتي هي أحسن؛ وذلك بتجنّب كلماتهم الباطلة والقبيحة، وطرائقهم المتناقضة والملتوية، والتزام كلمة الحق في جدالهم، والكلمات الطيبة البريئة، وسلوك طريق الرفق والرجاحة والوقار، دون فحش ولا طيش ولا فظاظة، وبيّن لهم أنّ هذه الطريقة في الجدال هي أحسن من غيرها، في لفظها ومعناها،

---

288. ابن باديس. 1995م. *تفسير ابن باديس*. ص. 322- 323.

289. من الناس من لا تقنعه الموعظة ولا النصح والإرشاد، فيحتاج إلى مجادلة ومناظرة لإقناعه، فقد تكون عنده شبهة، فيحتاج إلى مجادلة ومناظرة، بما يراه المجادِل والمناظِر مناسبًا مع حاله، مع الأخذ بالاعتبار طبيعة الزمان والمكان، وعقيدة المناظَر ومذهبه، فإنّ هذا من الحكمة.

وأساس المجادلة: الرغبة في الوصول إلى الحق، ولذا يجب على الداعية فهم أصول الجدال، والحوار، والمناظرة؛ حتى لا يفسد أكثر مما يصلح. انظر: العنزي. عزيز بن فرحان. 2005. *البصيرة في الدعوة إلى الله*. أبو ظبي: دار الإمام مالك. ص.123- 126.

290. القرآن. النحل 16: 125.

ومظهرها وتأثيرها، وإفضائها للمقصود من إفحام المبطل وجلبه، وردّ شره عن الناس، واطلاعهم على نقصه، وسوء قصده. [291]

ثم حذّر الدعاة من الخصام والجدال بغير حق، وأنّ المدافعة والمغالبة من فطرة الإنسان، غير أنّ التربية الدينية هي التي تضبط خُلُقه، وتقوّم فطرته، فتجعل جداله بالحق عن الحق، ونبّه كل داعية مِن أن يطغى عليه خلق المدافعة والمغالبة، فيذهب في الجدل شر مذاهبه، وتصير الخصومة له خلقًا، ومن صارت الخصومة له خلقًا أصبح يندفع معها في كل شيء، ولأدنى شيء، ولا يبالي بحق ولا باطل، وإنما يريد الغلب بأي وجه كان، وهذا هو الذي قال فيه النبي ﷺ: «إِنَّ أَبْغَضَ الرِّجَالِ إِلَى اللَّهِ الْأَلَدُّ الْخَصِمُ»[292]ومن ضبط نفسه وراقب ربه، لا يجادل إلّا عن الحق وبالتي هي أحسن[293].

وهذه الآية: ﴿ٱدۡعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلۡحِكۡمَةِ وَٱلۡمَوۡعِظَةِ ٱلۡحَسَنَةِۖ وَجَٰدِلۡهُم بِٱلَّتِي هِيَ أَحۡسَنُۚ﴾[294] نزلت بمكة في وقت الأمر بمهادنة قريش، وأمر الله نبيه ﷺ أن يدعو إلى دين الله وشرعه بتلطف ولين دون مخاشنة وتعنيف، وهكذا ينبغي أن يُوعظ المسلمون إلى يوم القيامة[295]، وتنزيل ابن باديس لها تطبيق لقاعدة مهمة وهي: (العبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب) وهو موافق لما قاله المفسرون من قبله[296].

---

[291]. ابن باديس. 1995م. *تفسير ابن باديس*. ص.325- 324.

[292]. البخاري. 1422هـ. *صحيح البخاري*. كتاب: تفسير القرآن. باب: وهو ألد الخصام. ج.6. ص.28. حديث رقم: 4523. ومسلم. مسلم بن الحجاج. د. ت. *صحيح مسلم*. كتاب العلم. باب في الألد الخصم. بيروت: دار إحياء التراث العربي. ج.4: 2054. رقم الحديث: 2668.

[293]. ابن باديس. 1995م. *تفسير ابن باديس*. ص.326.

[294]. القرآن. النحل 16: 125.

[295]. القرطبي. 1964م. *الجامع لأحكام القرآن*. ج.10. ص.200.

[296]. الخازن. علاء الدين علي بن محمد. 1415هـ. *لباب التأويل في معاني التنزيل*. بيروت: دار الكتب العلمية. ج.3. ص.107.

وقد تخلّق ابن باديس بهذه الصفات، فكان حكيمًا في دعوته؛ تدرّج في الجهر بالمبادئ وإظهار المقاصد[297]، واستطاع أن يكسب قلوب المدعوّين باهتمامه بهم، ولين جانبه، فكان لذلك أثر عظيم في نجاح دعوته.

المطلب الرابع: توجيهات للدعاة

وصّى ابن باديس الدعاة بوصايا استنبطها من الآيات المتعلقة بالدعوة إلى الله منها:

1- **الصبر على الأذى**: وأكّد على هذا الخُلق في تفسير قوله تعالى: ﴿فَلَوْلَا نَفَرَ مِن كُلِّ فِرْقَةٍ مِّنْهُمْ طَآئِفَةٌ لِّيَتَفَقَّهُوا۟ فِى ٱلدِّينِ وَلِيُنذِرُوا۟ قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوٓا۟ إِلَيْهِمْ لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ ﴿١٢٢﴾﴾[298] فقال: فالواجب على أهل الدين التبليغ والإنذار، والصبر على ما في طريق ذلك من الأذى والبلايا، والعطف على الخلق والرحمة[299].

2- **ابتداء الدعوة بالأقربين**: بعد أن فسّر قول الله ﷻ: ﴿وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ ٱلْأَقْرَبِينَ ﴿٢١٤﴾﴾[300]، نبّه الدعاة بالبدء بأقرب الناس لهم، ثم مَن بعدهم على التدريج، ومقتضى الحكمة أن يكون الإنذار من القريب إلى البعيد، ولذلك لما نزلت هذه الآية صعد النبي ﷺ إلى الصفا فنادى بطون قريش حتى نادى العباس عمه، وصفية عمته، وفاطمة ابنته، وقال لهم: «يَا مَعْشَرَ قُرَيْشٍ

---

297. العرابي. علي عامر. 1409هـ. *الإمام عبد الحميد بن باديس ومنهجه في الدعوة من خلال آثاره في التفسير والحديث*. (رسالة ماجستير) المملكة العربية السعودية: جامعة أم القرى. ص.427.

298. القرآن. التوبة 9: 122.

299. ابن باديس. 1995م. *تفسير ابن باديس*. ص.296-297.

300. القرآن. الشعراء 26: 214.

– أَوْ كَلِمَةً نَحْوَهَا – اشْتَرُوا أَنْفُسَكُمْ لاَ أُغْنِي عَنْكُمْ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا»[301].

ونصح ابن باديس الداعية أن يبدأ في الإرشاد والهداية بأقرب الناس إليه، ثم مَن بعدهم على التدريج[302]؛ فلو قام كل واحد منا بإرشاد أهله وأقرب الناس إليه، لا نلبث أن نرى الخير قد انتشر في الجميع؛ لأنّ الأمة تتركب من الأُسر، فعندما يهتم كل واحد بصلاح أسرته ترتقي الأمة كلها بارتقاء أُسرها، وعندما يقصد الداعية بخدمة أسرته خدمة أمته يُثاب ثواب خادم الجميع: أسرته بالفعل، وأمته بالقصد، وكل هذا مما يثاب المرء شرعًا عليه[303].

وهذا تنزيل صحيح للآية، أيّده بالسنة النبوية، وخاطب فيه العقل بالمنطق.

3- **إحقاق الحق وإبطال الباطل:** بعد تفسيره لقول المولى ﷻ: ﴿يَٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ قَدۡ جَآءَكُمۡ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمۡ كَثِيرٗا مِّمَّا كُنتُمۡ تُخۡفُونَ مِنَ ٱلۡكِتَٰبِ وَيَعۡفُواْ عَن كَثِيرٖۚ قَدۡ جَآءَكُم مِّنَ ٱللَّهِ نُورٞ وَكِتَٰبٞ مُّبِينٞ ١٥ يَهۡدِي بِهِ ٱللَّهُ مَنِ ٱتَّبَعَ رِضۡوَٰنَهُۥ سُبُلَ ٱلسَّلَٰمِ وَيُخۡرِجُهُم مِّنَ

---

301. البخاري. 1422هـ. *صحيح البخاري*. كتاب تفسير القرآن. باب ﴿وَأَنذِرۡ عَشِيرَتَكَ ٱلۡأَقۡرَبِينَ ٢١٤ وَٱخۡفِضۡ جَنَاحَكَ﴾ [الشعراء 26: 214- 215] أَلِنْ جانبك. ج.6. ص. 111. رقم الحديث: 4771. ومسلم. د. ت. *صحيح مسلم*. كتاب الإيمان. باب: باب في قوله تعالى: ﴿وَأَنذِرۡ عَشِيرَتَكَ ٱلۡأَقۡرَبِينَ ٢١٤﴾ [الشعراء 26: 214]. ج1: 192. رقم الحديث: 206.

302. هذا المنهج مأخوذ من منهج النبي ﷺ في دعوته؛ فقد تدرّج فيها فبدأ بالأقربين، ثم بأهل مكة، ثم القبائل العربية، وانتهت دعوته إلى الناس كافة، وهذا التدرّج كان له أثر كبير في نجاح دعوته؛ قال ابن حجر: "والسر في الأمر بإنذار الأقربين أولا أن الحجة إذا قامت عليهم تعدت إلى غيرهم، وإلا فكانوا علة للأبعدين في الامتناع، وأن لا يأخذه ما يأخذ القريب للقريب من العطف والرأفة فيحابيهم في الدعوة والتخويف، فلذلك نص له على إنذارهم" ابن حجر. أحمد بن علي بن حجر. 1379. *فتح الباري شرح صحيح البخاري*. بيروت: دار المعرفة. ج.8. ص.503.

303. ابن باديس. 1995م. *تفسير ابن باديس*. ص.297.

ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ بِإِذۡنِهِۦ وَيَهۡدِيهِمۡ إِلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ ﴿١٦﴾﴾[304]، بيّن أنه ينبغي على الداعي إلى الله والمناظِر في العلم، أن يقصد إحقاق الحق وإبطال الباطل، وإقناع الخصم بالحق وجلبه إليه؛ فيقتصر من كل حديثه على ما يحصل له ذلك، ويتجنب ذكر العيوب والمثالب، ولو كانت هنالك عيوب ومثالب؛ اقتداء بهذا الأدب القرآني النبوي في التجاوز مما في القوم عن كثير، وفي ذكر العيوب والمثالب خروج عن القصد وبعد عن الأدب، وتنفير عن الاستماع والقبول، فإحقاق الحق وإبطال الباطل، وإقناع الخصم بالحق هما المقصود من الدعوة والمناظرة[305].

وقد اتبع ابن باديس في دعوته منهج التعريف والتوعية، ثم التكوين والتربية[306]، واهتم بتعليم الأجيال وتربية الناشئة، وكانت له دروس مسموعة في المساجد للدعوة إلى الله، كما كانت له دروس مقروءة في المجلات التي أسسها كالمنتقد، والشهاب، واستعان بالله ﷻ على تبليغ دعوته، ثم بالرجال المخلصين الذين كانوا معه في جمعية علماء المسلمين، وهذه الأساليب كان لها عظيم الأثر في نشر دعوته، وتغيير مجتمعه.

خلاصة المبحث:

1- اهتمام ابن باديس بالجانب الدعوي، وتفصيله لهذا الجانب؛ حيث كتب فيه أكثر من عشرين صفحة، ذكر فيها أنّ الدعوة إلى الله مسؤولية كل مسلم، ثم ذكر صفات الداعية، وأساليب الدعوة إلى الله، وقدّم بعض النصائح والتوجيهات للدعاة استنبطها من الآيات، ليجعلها الداعية

---

304. القرآن. المائدة 5: 15-16.

305. ابن باديس. 1995م. *تفسير ابن باديس*. ص.329.

306. العرابي. عامر علي. 1409هـ. *الإمام عبد الحميد بن باديس ومنهجه في الدعوة من خلال آثاره في التفسير والحديث*. (رسالة ماجستير). السعودية: جامعة أم القرى. ص. 433.

نصب عينيه، وينتفع بها في طريق دعوته.

2- تنزيل ابن باديس لآيات الدعوة على واقعه كان تنزيلًا صحيحًا، تارة ينزل فيه جزءًا من الآية مما يخدم قضية الدعوة، وتارة ينزل الآية كاملة إذا اقتضى الأمر.

3- استشهاده بواقع عصره قبل تنزيل الآية عليه؛ كما ذكر ذلك عن واقع الخطباء.

UNIVERSITI SAINS ISLAM MALAYSIA
جامعة العلوم الإسلامية الماليزية
ISLAMIC SCIENCE UNIVERSITY OF MALAYSIA

المبحث الثالث

تنزيل الآيات على الواقع في مجال الآداب والأخلاق

تمهيد:

لقد اعتنى القرآن الكريم بالجانب الأخلاقي، وجعل له مكانة عظيمة، ويتجلى ذلك في كثير من الآيات التي يأمرنا فيها الله ﷻ بالتحلي بأحسن الأخلاق، وينهانا عن سيئها؛ حتى تتحقق الحياة المستقيمة بين أفراد المجتمع، فالإنسان اجتماعي بطبعه، تربطه علاقات بين أفراد مجتمعه، وينبغي أن تكون هذه العلاقات مبنية وفق نظام بديع، وقد رتّب الله ﷻ الأجر العظيم على الأخلاق الحسنة، وجعلها من العبادات التي يتفاضل بها الناس يوم القيامة، وقد لاحظ ابن باديس اهتمام القرآن بمكارم الأخلاق، ومن ثَمّ جعلها أصلًا لكمال الإنسان وأكّد على ذلك بقوله: "العلم الصحيح، والخلق المتين، هما الأصلان اللذان ينبني عليهما كمال الإنسان"[307]، ورأى أنّ التربية الأخلاقية قد تكون بطريقة مباشرة؛ وذلك بتخصيص دروس في الحث على الفضائل الإسلامية، واعتماد بعض من آيات القرآن والأحاديث النبوية لاستنباط أحكام الأخلاق، وقد تكون بطريقة غير مباشرة؛ وذلك باعتماد غرس الأخلاق أثناء الدروس المختلفة[308].

ونتيجة لارتباطه الدائم بالقرآن استطاع أن ينزل الآيات التي تضمنت بعض القيم الأخلاقية على الواقع، وتنزيله لها هو تلميح إلى أهمية العمل بها، وكيفية تطبيقها، فأشار إلى ذلك في تفسيره رغم أنه لم يذكر أن هناك حدث قد حصل في واقعه؛ بل هو نابع من أهمية العمل بهذه الآيات وتطبيقها في الواقع،

---

307. ابن باديس.1995م. *تفسير ابن باديس*. ص99.

308. فتيحة معط الله. 2012م. *الأبعاد الحضارية في فكر ابن باديس*. (بحث ماجستير). الجزائر: جامعة تلمسان. ص.68.

وسيأتي ذكرها في المطالب الآتية:

المطلب الأول: بر الوالدين

عندما وقف ابن باديس على آيات القرآن وجد أنها عُنيت ببرّ الوالدين، فأكّد على هذا الخلق النبيل عند تفسيره لقول الله ﷻ: ﴿۞وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوٓاْ إِلَّآ إِيَّاهُ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَٰنًا إِمَّا يَبْلُغَنَّ عِندَكَ ٱلْكِبَرَ أَحَدُهُمَآ أَوْ كِلَاهُمَا فَلَا تَقُل لَّهُمَآ أُفٍّ وَلَا تَنْهَرْهُمَا وَقُل لَّهُمَا قَوْلًا كَرِيمًا ﴿٢٣﴾ وَٱخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ ٱلذُّلِّ مِنَ ٱلرَّحْمَةِ وَقُل رَّبِّ ٱرْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيَانِى صَغِيرًا ﴿٢٤﴾﴾[309] فذكر أنّ الإحسان إليهما عام في جميع الأحوال، وعلى الولد أن يخاطب والديه بجميل القول، ويدخل السرور عليهما، وذكر بعض مظاهر تطبيقها في واقع الناس، ومنها:

1- التحفّظ من كل ما يجلب لهما سوءًا من غيرنا، ومن ذلك عدم سبّ الناس حتى لا يسبوا والدينا، فنكون سببًا في سبهما، وسبهما من أكبر الكبائر، واستدلّ على ذلك بالحديث الصحيح عن عبد الله بن عمرو، ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: «إِنَّ مِنْ أَكْبَرِ الكَبَائِرِ أَنْ يَلْعَنَ الرَّجُلُ وَالِدَيْهِ» قِيلَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، وَكَيْفَ يَلْعَنُ الرَّجُلُ وَالِدَيْهِ؟ قَالَ: «يَسُبُّ الرَّجُلُ أَبَا الرَّجُلِ، فَيَسُبُّ أَبَاهُ، وَيَسُبُّ أُمَّهُ»[310].

2- الدعاء والاستغفار لهما بعد موتهما.

3- إكرام صديقهما وصلة رحمهما، واستدل على ذلك بحديث عبد الله بن عمر، أنّ رجلًا من الأعراب لقيه بطريق مكة، فسلم عليه عبد الله، وحمله على حمار كان يركبه، وأعطاه عمامة

---

309. القرآن. الإسراء 17: 23- 24.

310. البخاري. 1422هـ. *صحيح البخاري*. كتاب: الأدب. باب: لا يسب الرجل والديه. ج. 8: 3. رقم الحديث: 5973.

كانت على رأسه، فقال ابن دينار: فقلنا له: أصلحك الله إنهم الأعراب وإنهم يرضون باليسير، فقال عبد الله: إنّ أبا هذا كان ودًا لعمر بن الخطاب، وإني سمعت رسول الله ﷺ يقول: «إِنَّ أَبَرَّ الْبِرِّ صِلَةُ الْوَلَدِ أَهْلَ وُدِّ أَبِيهِ»[311].

ويرى ابن باديس أن من راضَ نفسه على هذه الأخلاق الكريمة، والمعاملة الحسنة، والأقوال الطيبة التي أُمر بها مع والديه، يحصل له من الارتياض عليها كمال أخلاقي مع الناس أجمعين، وأنّ ذلك من ثمرات امتثال أمر الله وطاعة الوالدين[312].

المطلب الثاني: التواضع

أدرك ابن باديس أهمية التواضع خاصة في طلب العلم؛ فالإنسان مهما أوتي من العلم فهو قليل، وينبغي عليه أن لا يظن أنه أعلم الناس، وأن يقبل العلم من غيره حتى لو كان أصغر منه سنًا، وقد أكّد على هذا المعنى بعد تفسيره لقول الله ﷻ: ﴿فَمَكَثَ غَيْرَ بَعِيدٍ فَقَالَ أَحَطتُ بِمَا لَمْ تُحِطْ بِهِۦ وَجِئْتُكَ مِن سَبَإٍۭ بِنَبَإٍ يَقِينٍ ﴿٢٢﴾﴾[313] فهذا نبي الله سليمان عليه السلام قَبِل ما جاء من الهدهد من علم، على الرغم أنه من أصغر المخلوقات في حين أنه أكثر منه علمًا وحكمة، وهذا يدلّ على تواضعه في أخذ العلم ممن هو دونه، وقد نظر ابن باديس إلى هذه الآية واستنبط منها أنّ للصغير أن يقول لمن هو أكبر منه: علمت ما لم تعلم، وعندي من العلم ما ليس عندك؛ إذا كان من ذلك على يقين، وكان له غرض صحيح، وعلى الكبير أن يتقبل ذلك منه، ولا يرده إذا علم صدقه[314].

---

311. مسلم. د. ت. *صحيح مسلم*. كتاب: البر والصلة والآداب. باب: صلة أصدقاء الأب والأم ونحوهما. ج. 4: 1979. رقم الحديث: 2552.

312. ابن باديس. 1995م. *تفسير ابن باديس*. ص. 203- 205.

313. القرآن. النمل27: 22.

314. ابن باديس. 1995م. *تفسير ابن باديس*. ص.271.

وقد برز خلق التواضع في حياة ابن باديس العلمية، يحكي ذلك عنه أحد زملائه: أنه كان في زيارة لوهران، وعرضت قضية من القضايا، فقال فيها بغير القول المشهور، ولما عاد إلى قسنطينة واستشار مراجعيه، تبين له أنه لم يكن على صواب، فكتب في الشهاب: إنني كنت مع فلان وفلان وتكلمنا في قضية ما، والحق ما قاله فلان وهو القول المشهور[315].

المطلب الثالث: الحلم

الحلم خلق عظيم وصف الله ﷻ ذاته به، فقال سبحانه: ﴿وَٱللَّهُ غَفُورٌ حَلِيمٌ ﴿٢٢٥﴾﴾[316] وجعله صفة لعباده الصالحين، وهو من أهم صفات الأنبياء والمرسلين، وقد أوذي رسول الله ﷺ فكان يقول: «ربِّ اغْفِرْ لِقَومِي فَإِنَّهُمْ لَا يَعْلَمُونَ»[317]، وقد يتعرض الإنسان لأذى ممن حوله من الجاهلين، ويسمع منهم كلامًا جارحًا، وهنا يجب عليه أن يراعي ما أمر به القرآن، وقد استوقف ابن باديس قول الله ﷻ: ﴿وَعِبَادُ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلَّذِينَ يَمۡشُونَ عَلَى ٱلۡأَرۡضِ هَوۡنٗا وَإِذَا خَاطَبَهُمُ ٱلۡجَٰهِلُونَ قَالُواْ سَلَٰمٗا ﴿٦٣﴾﴾[318] فتدبر هذه الآية، ثم استفاض في تفسيرها، فانتهى إلى تطبيقها والعمل بها في واقع الناس، فنبّه المؤمن إلى أن يكون حاضر البال بهذه الآية عندما يقابله جاهل، فيخاطبه بما لا يرضيه، فعليه أن يتأدب بأدب القرآن، ويكون ردّه سلامًا؛ حتى يسلم من شره، فيسلَم له عرضه ومروءته ودينه، ويسلم ذلك الجاهل أيضًا من اللجاج في الشر والتمادي فيه، وبهذا تحصل السلامة للجميع[319].

---

315. مطبقاني. 1999. *عبد الحميد بن باديس العالم الرباني والزعيم السياسي*. ص.38.

316. القرآن. البقرة 2: 225.

317. البخاري. 1422هـ. *صحيح البخاري*. كتاب استتابة المرتدين والمعاندين وقتالهم. ج.9. ص.16. رقم الحديث: 6928، ومسلم. د. ت. *صحيح مسلم*. كتاب الجهاد والسير. باب غزوة أحد. ج.3: 1417. رقم الحديث: 1792.

318. القرآن. الفرقان 25: 63.

319. ابن باديس. 1995م. *تفسير ابن باديس*. ص.197.

وهذا التنزيل فيه بيان للعمل بهذا الأدب القرآني، وما يترتّب عليه من آثار، فهذا الموقف ليس فيه ضعف؛ بل هو عين الحكمة والقوة، وإذا عمل به المسلمون زادهم الله رفعة وعزة؛ لأنّ الشحناء تُوجب القطيعة، والعفو والحلم يزيد المجتمع ترابطًا وقوة.

وقد عُرف ابن باديس بالحلم والعفو، وكان سمة له[320]، وهذا نتيجة للتخلق بأخلاق القرآن التي كان يدعو إليها.

المطلب الرابع: الصبر

لما فسّر ابن باديس سورة الفرقان، أورد قول المفسرين في قول الله ﷻ: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ يُجۡزَوۡنَ ٱلۡغُرۡفَةَ بِمَا صَبَرُواْ وَيُلَقَّوۡنَ فِيهَا تَحِيَّةٗ وَسَلَٰمًا ٧٥﴾[321] ثم علّق فقال: "فلا ينهض بامتثال المأمورات وترك المنهيات إلّا من صبر، والصبر خلق من الأخلاق التي تتربى وتنمو بالمران والدوام، فواجب على المكلّف أن يجعل تربية نفسه عليه، وتعويدها به من أكبر همه، إذ لا يقوم بالتكاليف الشرعية إلّا به؛ بل ولا يستطيع الحياة في هذه الدار الدنيا الموضوعة على المحنة والابتلاء إلا إذا تمسك بسببه"[322].

وهذا تنزيل للآية على الواقع بالتلميح يدلّ على ما كان يعانيه مجتمعه من محن وابتلاء في ظل الاستعمار الفرنسي، وحرمانهم من أبسط حقوقهم، ولذا فإنه كان يذكّر الناس بتربية أنفسهم على الصبر، ويبيّن لهم أنّ هذا الخلق العظيم يأتي بالممارسة والمداومة عليه، وينبغي على العاقل أن يستعين به على أداء العبادات، وترك المحرمات.

المطلب الخامس: النهي عن الجدال

---

320. سالم. محمد بهي الدين. 1999م. *ابن باديس فارس الإصلاح والتنوير*. القاهرة: دار الشروق. ص. 78.

321. القرآن. الفرقان 25: 75.

322. ابن باديس. 1995م. *تفسير ابن باديس*. ص. 242.

وصف الله ﷻ الإنسان بكثرة الجدال، فقال سبحانه: ﴿وَكَانَ ٱلۡإِنسَٰنُ أَكۡثَرَ شَيۡءٖ جَدَلٗا ﴿٥٤﴾﴾[323]، ولأنّ الإنسان اجتماعي بطبعه، يعيش مع مجتمعه ويتفاعل معهم، فقد ضبط الإسلام هذه الصفة فيه، ونهاه عن الجدال المذموم، الذي يُفضي إلى المنازعة والمخاصمة، وبالتالي يكون سببًا من أسباب التفكك الاجتماعي؛ لأنه يجلب العداوة بين أبنائه، وينمّي بينهم الحقد والكراهية، وبعد أن نظر ابن باديس إلى القرآن نظرة تفسيرية، وقف على مهمته التطبيقية، فتدبّر عند قول الله ﷻ: ﴿ٱدۡعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلۡحِكۡمَةِ وَٱلۡمَوۡعِظَةِ ٱلۡحَسَنَةِۖ وَجَٰدِلۡهُم بِٱلَّتِي هِيَ أَحۡسَنُۚ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعۡلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِۦ وَهُوَ أَعۡلَمُ بِٱلۡمُهۡتَدِينَ ﴿١٢٥﴾﴾[324] وأشار إلى أنّ المدافعة والمغالبة من فطرة الإنسان، غير أنّ التربية الدينية هي التي تضبط خلقه، وتقوّم فطرته، فتجعل جداله بالحق عن الحق. ثم حذّر مجتمعه من طغيان خلق المدافعة والمغالبة، والذهاب في الجدل شر مذهب، فتصير الخصومة خلقًا للمجتمع، فلا يُبالي أفرادها بحق ولا باطل؛ بل يغلب عليهم الاندفاع في كل شيء، وبالتالي يدخل المرء في قول النبي ﷺ: «إِنَّ أَبْغَضَ الرِّجَالِ إِلَى اللَّهِ الأَلَدُّ الخَصِمُ»[325]، ولذا ينبغي ضبط النفس، وترك الجدال إلا عن الحق، وبالتي هي أحسن[326].

وفي عصرنا هذا كثر الجدال والمراء، وقد يكون الجدال أحيانًا بأمور ثابتة في الكتاب والسنة، وهذا من علامات الضلال، فإذا كان "الخصام بالباطل وضرب الحق به، وضرب الحق بعضه ببعض؛ بإبداء التعارض والتدافع والتنافي بينهما، لا المناظرة لطلب الثواب مع تفويض إلى الله عند العجز عن معرفة

---

323. القرآن. الكهف 18: 54.

324. القرآن. النحل 16: 125.

325. سبق تخريجه.

326. ابن باديس. 1995م. *تفسير ابن باديس*. ص. 326.

الكُنْه"[327] فهو جدال مذموم.

المطلب السادس: النهي عن الخيانة

كان لابن باديس في فترة الاستعمار نزعة إصلاحية، -فقد عاشت الجزائر في ظروف صعبة في ظل الاستعمار الفرنسي-، فأقبل على القرآن الكريم يقرؤه ويفسره، ويبحث فيه عما يُصلح مجتمعه، وكان ينوّه بشأن الخيانات التي قد تقع في مجتمعه، ومن ذلك ما قاله عند تفسيره لقول الله ﷻ: ﴿۞إِنَّ ٱللَّهَ يُدَٰفِعُ عَنِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ خَوَّانٍ كَفُورٍ ﴿٣٨﴾﴾[328] "كل عمل لا يحل فهو خيانة، وإن كان بأدنى إشارة، وقد نبّه الله على هذا بقوله: ﴿يَعۡلَمُ خَآئِنَةَ ٱلۡأَعۡيُنِ وَمَا تُخۡفِي ٱلصُّدُورُ ﴿١٩﴾﴾[329] وهي مسارقة النظر إلى ما لا يحل، والإشارة بطرف العين فيما يحرم، وأعظم الخيانة بعد الكفر خيانة العامة؛ لأنّ الذنب يعظم بعظم أثره وانتشار ضرره، ولهذا جاء ما جاء من الوعيد الشديد فيمن ولي أمرًا من أمور المسلمين فغشهم ولم ينصح لهم[330]، فحق على المسلم أن يحذر من الخيانة دقيقها وجليلها، وخصوصًا ما اتصل بالناس منها، ويتنبه من أقل كلمة وأدنى إشارة توقعه في خطرها"[331].

وخيانة الراعي لرعيته له مظاهر عديدة، منها: عدم الحكم بما أنزل الله، وأخذ حقوق الناس، وتولية من ليس أهلًا للولاية، وعدم تحقيق مصالحهم العامة، وغير ذلك من الخيانات.

---

327. السندي. محمد بن عبد الهادي التتوي. د. ت. *حاشية السندي على سنن ابن ماجه*. بيروت: دار الجيل. ج.1. ص.24.

328. القرآن. الحج 22: 38.

329. القرآن. غافر40: 19.

330. ورد هذا الوعيد في حديث رسول الله ﷺ «مَا مِنْ عَبْدٍ يَسْتَرْعِيهِ اللهُ رَعِيَّةً، يَمُوتُ يَوْمَ يَمُوتُ وَهُوَ غَاشٌّ لِرَعِيَّتِهِ، إِلَّا حَرَّمَ اللهُ عَلَيْهِ الْجَنَّةَ» مسلم. د. ت. *صحيح مسلم*. كتاب الإيمان. باب استحقاق الوالي الغاش لرعيته النار. ج.1. ص.125. رقم الحديث: 227.

331. ابن باديس. 1995م. *تفسير ابن باديس*. ص. 352.

وهذا التنزيل الذي ساقه ابن باديس على سبيل التلميح والتعريض يدلّ على تشنيعه لهذه الصورة من صور الخيانة؛ لما يترتب عليها من المفاسد العظيمة، لكنّ ابن باديس لم يستطع التصريح به؛ لأنّ الفترة الزمنية التي عاش فيها لا تسمح بالإفصاح عن ذلك.

المطلب السابع: النهي عن العجب

قال تعالى: ﴿وَلَا تَمۡشِ فِي ٱلۡأَرۡضِ مَرَحًاۖ إِنَّكَ لَن تَخۡرِقَ ٱلۡأَرۡضَ وَلَن تَبۡلُغَ ٱلۡجِبَالَ طُولٗا ٣٧﴾[332]

لاحظ ابن باديس أنّ هذه الآية تشتمل على أصول في علم الأخلاق، ومن ثَمّ عنون لها بـ (آية الأخلاق)؛ لأنه كان يرى أنّ العجب أصل الهلاك، وأنّ المرء إذا أُعجب بنفسه عمي عما يعتريها من نقص، فلا يسعى في إزالته، وانصرف عن الفضائل فلا يسعى في اكتسابها؛ فيعيش بلا أخلاق، وبالتالي يكون مصدرًا للشر، بعيدًا عن الخير، فيحتقر الناس، ولا يرى لهم حقًا، ولا يرقب فيهم إلًّا ولا ذمة.

ثم جعل ترك العجب شرطًا في حسن وكمال الأخلاق؛ لأنه أساس الرذائل، وهو المانع من اكتساب الفضائل، فشرط وجودها تركه. وبالمقابل، فإن من لم يكن معجبًا بنفسه، فإن بوسعه التخلق بمحاسن الأخلاق، والتنزه عن نقائصها؛ لأنّ الإنسان جُبل على محبة الكمال وكراهة النقص، فإذا سلم من العجب فإن تلك الجبلّة تدعوه إلى ذلك التخلق، فإذا نُبّه على نقصه لم تأخذه العزة، حتى يبلغ ما قدر له من كمال[333].

خلاصة المبحث:

1- اهتم ابن باديس بجانب الأخلاق في تفسيره، وجعلها أصلًا لكمال الإنسان.

2- سلك ابن باديس في تنزيل آيات الأخلاق على الواقع مسلكين: التلميح والتعريض وهو الغالب،

---

[332]. القرآن. الإسراء 17: 37.

[333]. ابن باديس. 1995م. *تفسير ابن باديس*. ص. 108- 109.

والتصريح المباشر وهو الأقل.

UNIVERSITI SAINS ISLAM MALAYSIA
جامعة العلوم الإسلامية الماليزية
ISLAMIC SCIENCE UNIVERSITY OF MALAYSIA

المبحث الرابع

تنزيل الآيات على الواقع في مجال تدبر القرآن

تمهيد:

أنزل الله القرآن الكريم ليكون منهاجًا للبشر، يقرؤونه ويتدبرونه ويعملون به، ويرجعون إليه في معالجة قضاياهم عبر السنين؛ فقد جعله الله ﷻ صالحًا لكل زمان ومكان، وقد أدرك ابن باديس الغرض الأساسي الذي نزل القرآن من أجله، بعد أن عاش معه يقرؤه ويفسره، ويكتبه في مجالسه التي كان ينشرها في مجلة الشهاب، وكان يدعونا إلى "أن نقرأ القرآن ونتفهمه، حتى تكون آياته على طرف ألسنتنا، ومعانيه نصب أعيننا، لنطبق آياته على أحوالنا، وننزلها عليها كما كانت تنزل على الأحوال والوقائع، فإذا حدث مرض قلبي أو اجتماعي طلبنا دواءه في القرآن وطبقناه عليه، وإذا عرضت شبهة أو ورد اعتراض، طلبنا فيه الرد والإبطال، وإذا نزلت نازلة طلبنا فيه حكمها، وهكذا نذهب في تطبيقه وتنزيله على الشؤون والأحوال إلى أقصى حد يمكننا"[334].

بهذه النظرة العملية للقرآن كتب ابن باديس تفسيره، وأوصى بالرجوع إلى القرآن في كل الأحوال؛ فالإنسان يمر في هذه الدنيا بحالة يضعف فيها إيمانه، ويقسو فيها قلبه، وقد يتمنى أنه لم يولد بسبب ما يتعرض له من أعباء في هذه الحياة، وكان هذا شعور فئة من الناس فترة الاستعمار الفرنسي في الجزائر؛ بسبب الفقر والحرمان، والجهل والبلاء، وهذا الواقع المرّ دفع ابن باديس إلى كتابته لمجالس التذكير الذي

---

334. ابن باديس. 1995م. *تفسير ابن باديس*. ص. 181.

حث فيها الناس على تدبر آيات القرآن الكريم؛ ليسهم في معالجة قلوبهم[335]، وهو بهذا التفسير الإصلاحي للآيات يشير إلى أنّ واقع المسلمين اليوم لن يصلح إلا بما صلح به أولهم، وهو التمسك بالقرآن والرجوع إليه، والعمل به، وفي معرض كلامه في هذا المجال تطرّق إلى المطالب الآتية:

المطلب الأول: تدبر القرآن ومعرفة معانيه

عندما كان ابن باديس يفسر قول الله ﷻ: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَوۡلَا نُزِّلَ عَلَيۡهِ ٱلۡقُرۡءَانُ جُمۡلَةٗ وَٰحِدَةٗۚ كَذَٰلِكَ لِنُثَبِّتَ بِهِۦ فُؤَادَكَۖ وَرَتَّلۡنَٰهُ تَرۡتِيلٗا ٣٢﴾[336] استوقفته هذه الآية، التي وصفها بأنها تصوّر حال المؤمن الذي ينكبّ على القرآن، ويتلقّاه بالقبول، ثم لا يتدبره ولا يفهمه، بحالة الأصم الأعمى في عدم انتفاعه بما هو منكبّ عليه، تقبيحًا لحاله، وتحذيرًا منه، وتنبيهًا على أنّ الانتفاع بالقرآن الذي أمرنا الله ﷻ به، والذي يكون سببًا لتفتّح البصائر، واتّساع المدارك، وتهذيب الأخلاق، وتزكية النفوس، واستقامة الأحوال؛ إنما يكون بتدبره، والتفكر في آياته، دون مجرد الانكباب عليه بلا تفكر ولا تدبر.

ثم أرشد الناس إلى إحضار قلوبهم عند سماع آيات القرآن، واستعمال عقولهم في فهمها، وحمل أنفسهم على الاتعاظ بها، والإخلاص في ذلك كله لله ﷻ؛ حتى يفتح الله عليهم من وجوه العلم والعمل بما لا يخطر لهم على بال[337].

فالغاية الأساسية للقرآن -كما فهمها ابن باديس- هي غاية عملية، الهدف منها بناء مجتمع إسلامي، فكان يحث الناس على الإقبال على القرآن، قراءةً واستماعًا وفهمًا، والمداومة على ذلك حتى

---

335. باي زكوب عبد العالي وجاسم ليث سعود. 2012م. "وجوه الخطاب الإصلاحي في تفسير ابن باديس". *مجلة الإسلام في آسيا*. ماليزيا: الجامعة الإسلامية العالمية. ج.9. عدد (2). ديسمبر. ص.43.

336. القرآن. الفرقان 25: 32.

337. ابن باديس. 1995م. *تفسير ابن باديس*. ص. 235.

يصير عادةً لهم، وسيظهر أثر ذلك في حياتهم[338].

كما حث ابن باديس على معرفة تفسير القرآن؛ لأنه يُعين القارئ على فهم معانيه، ومعرفة مراد الله ﷻ منه، ممّا يسهّل عليه تطبيقه والعمل به، وذلك عند تنزيله لقول الله ﷻ: ﴿وَقَالَ ٱلرَّسُولُ يَـٰرَبِّ إِنَّ قَوْمِى ٱتَّخَذُوا۟ هَـٰذَا ٱلْقُرْءَانَ مَهْجُورًا ﴿٣٠﴾﴾[339] وانتقد الذين هجروا تفسير القرآن، ولم يكن لهم حظ منه، فقال: "ودعانا القرآن إلى تدبره وتفهمه والتفكر في آياته، ولا يتم ذلك إلّا بتفسيره وتبيينه، فأعرضنا عن ذلك وهجرنا تفسيره وتبيينه[340]، فترى الطالب يفني حصة كبيرة من عمره في العلوم الآلية، دون أن يكون طالع ختمة واحدة في أصغر تفسير كتفسير الجلالين مثلًا، بل يصير مدرّسًا متصدّرًا ولم يفعل ذلك"[341].

ثم بيّن أهمية معرفة علم التفسير، والطريقة التي نتّبعها لمعرفته، فقال: "لا نجاة لنا من هذا التيه الذي نحن فيه والعذاب المنوّع الذي نذوقه ونقاسيه، إلا بالرجوع إلى القرآن: إلى علمه وهديه، وبناء العقائد والأحكام والآداب عليه، والتفقّه فيه وفي السنة النبوية وشرحه وبيانه[342]، والاستعانة على ذلك بإخلاص القصد، وصحة الفهم، والاعتضاد بأنظار العلماء الراسخين، والاهتداء بهديهم في الفهم عن رب العالمين،

---

338. المرجع السابق. ص. 235.

339. القرآن. الفرقان 25: 30.

340. كثر في هذا العصر هجر المسلمين للقرآن ولتفسيره، ولا شك أنّ هذا الهجر كان له آثار سلبية على الفرد والمجتمع، منها ضعف الأمة الإسلامية، وتكالب الأعداء عليها، ولا سبيل إلى الخلاص من ذلك إلا بالرجوع إلى القرآن تلاوة وتدبرًا وعملًا، كما تلقّاه جيل الصحابة رضوان الله عليهم فكان السبب في مجدهم وعزتهم.

341. ابن باديس. 1995م. *تفسير ابن باديس*. ص.174.

342. لن يصلح آخر هذه الأمة إلا بما صلح به أولها، فإذا رجع الناس إلى القرآن، وتمسكوا به، وتيقنوا أنّ الهداية به وبالسنة النبوية الشارحة له؛ صلح أمرهم، ولذا عني ابن باديس بالقرآن، واستمر يفسره ربع قرن من الزمان؛ ليُعيد شعبه إليه، ويربيهم به.

وهذا أمر قريب على مَن قرّبه الله عليه، مُيسّر على مَن توكّل على الله فيه"[343].

ويتبيّن مما سبق أنّ ابن باديس يحث على ضرورة التعامل مع القرآن طبق منهج متكامل، وهو الإخلاص لله ﷻ، والرجوع إلى كتب التفسير لمعرفة المراد من كلام الله ﷻ، فهو سبب المجد والعزة، وقد أخذ به جيل الصحابة والتابعين رضوان الله عليهم فكانوا خير جيل، وفي زمننا هذا أصبح ذلك سهلًا ميسرًا؛ مع تطور العلم الحديث، وتوفّر الكتب المقروءة، والدروس المسموعة على الشبكة العنكبوتية.

المطلب الثاني: الاحتكام إلى القرآن

إنّ من صميم الإيمان بكتاب الله ﷻ اعتقاد وجوب التحاكم إليه، وعدم الاحتكام إلى غيره من قوانين البشر التي تخالف ما جاء فيه، وكل الأحكام التي جاءت في القرآن تتضمن مصالح البشر، وإن كانت تخفى على بعضهم، أو لا توافق هواهم، وقد سمّى الله ﷻ كتابه فرقانًا، فقال تعالى: ﴿تَبَارَكَ ٱلَّذِى نَزَّلَ ٱلْفُرْقَانَ عَلَىٰ عَبْدِهِۦ لِيَكُونَ لِلْعَـٰلَمِينَ نَذِيرًا ۝١﴾[344]، وعلّل ابن باديس هذه التسمية بأنّ القرآن يفرّق بين الحق والباطل، فهو الحكم العدل، والقول الفصل بين كل متنازعين يدّعي كل منهما أنه على الحق، وأنه ما تقابل حق وباطل، ولا تعالجت حجة وشبهة إلّا وفي هذا الكتاب الحكيم ما يفرق ما بينهما، والناس متفاوتون في إدراك ذلك منه على حسب ما عندهم من قوة علم، وحسن إخلاص، ثم وجّه الناس إلى الرجوع إليه، والتحاكم إليه، والاستسلام لما جاء فيه من أحكام، فقال: "فعلينا -إذن- أن يكون أول فزعنا في الفرق والفصل إليه، وأن يكون أول جهدنا في استجلاء ذلك من نصوصه ومراميه، مستعينين بالسّنّة القولية والعملية على استخراج لَآلِيه، فإذا حَكَمَ قبِلْنا وسلّمنا، وكنا مع ما حكم له، وفارقنا ما حكم

---

343. ابن باديس. 1995م. *تفسير ابن باديس*. ص.175.

344. القرآن. الفرقان 25: 1.

عليه، فالله سماه الفرقان؛ لنعلم أنه فارق بنفسه، ولنعمل بالفرق به، ولا يكمل إيماننا بأنه الفرقان، إلّا بالعلم والعمل"[345].

ولما كان الشعب الجزائري يعيش في ظل الاستعمار الفرنسي الذي نتج عنه تشريع قوانين وضعية، واحتكم الناس إليها، [346] فإنّ ابن باديس تأمل هذا الواقع ورأى أنه لا سبيل للخلاص منه إلا بالرجوع إلى القرآن، فناسب أن ينزل هذه الآية من سورة الفرقان على ما حدث في واقعه؛ حتى يُقبل الناس عليه، ويحتكموا إليه، وكان تنزيله لها بالتلميح والتعريض؛ وتضمّن النصح والإرشاد، والدعوة إلى الاحتكام إلى القرآن.

المطلب الثالث: شفاء القرآن للأبدان

من جملة الأوصاف التي وصف الله ﷻ بها كتابه أنه شفاء، فهو شفاء لداء القلوب وداء الأبدان، قال سبحانه: ﴿وَنُنَزِّلُ مِنَ ٱلْقُرْءَانِ مَا هُوَ شِفَآءٌ وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ وَلَا يَزِيدُ ٱلظَّٰلِمِينَ إِلَّا خَسَارًا ﴿٨٢﴾﴾[347]، وقد أطال ابن باديس في تعليقه على هذه الآية، فذكر مقدمة بيّن فيها أنّ العقائد والأخلاق أساس الأعمال، وأنّ آيات القرآن أتت لمعالجة أمراض القلوب، وبيان ما هو شفاء لها، وأنه لا شفاء لها إلّا بالقرآن، ومن طلب شفاءها في غير القرآن فإنه لا يزيدها إلّا مرضًا.

ثم ضرب مثلًا من الواقع فذكر أنّ الأمم الغربية بسجونها، ومحاكمها، وقوتها، قد امتلأت بالجنايات المنكرة التي تقشعر منها الأبدان، وبالمقابل فإن الممالك الإسلامية التي تقيم الحدود القرآنية كالمملكة الحجازية، والمملكة اليمانية، قد ضرب الأمن رواقه عليهما، واستقرت السكينة فيهما دون سجون مثل

---

345. ابن باديس. 1995م. *تفسير ابن باديس*. ص. 154-155.

346. راجع الحالة السياسية للجزائر في الفصل الأول من هذا البحث.

347. القرآن. الإسراء 17: 82.

أولئك؛ وما ذلك إلّا لأنهم داووا الملك بدواء القرآن فكان الشفاء التام[348].

وما نصّ عليه ابن باديس فيه نوع من المبالغة، فالممالك الإسلامية يوجد فيها سجون أيضًا، وتقع فيها الجرائم، ولكن ليست بنفس الكثرة التي تقع في البلاد الغربية التي لا تدين بالإسلام.

وقد استدل ابن باديس بأحاديث صحيحة تدل على أنّ القرآن شفاء للأبدان، منها حديث أبي هريرة ﷺ، عن النبي ﷺ قال: «مَا أَنْزَلَ اللَّهُ دَاءً إِلَّا أَنْزَلَ لَهُ شِفَاءً»[349]، وحديث عروة بن الزبير، عن عائشة ﷺ قالت: «كَانَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ إِذَا أَوَى إِلَى فِرَاشِهِ، نَفَثَ فِي كَفَّيْهِ بِقُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ وَبِالْمُعَوِّذَتَيْنِ جَمِيعًا، ثُمَّ يَمْسَحُ بِهِمَا وَجْهَهُ، وَمَا بَلَغَتْ يَدَاهُ مِنْ جَسَدِهِ» قَالَتْ عَائِشَةُ: «فَلَمَّا اشْتَكَى كَانَ يَأْمُرُنِي أَنْ أَفْعَلَ ذَلِكَ بِهِ»[350]، فهذه الأحاديث تدلّ على أنّ في القرآن شفاءً للأبدان.

ثم جمع بين الاستشفاء الحسي بالأدوية الطبية، والاستشفاء بالقرآن، وذكر ثبوت الأمر بالتداوي قولًا وعملًا عن النبي ﷺ، وثبوت الاستشفاء بالقرآن، ولا منافاة بينهما؛ لأنّ الإنسان مركب من روح من عالم النور، وجسم من عالم المادة المركبة، ومن الحكمة الإلهية أن شرع الله لنا عند الأمراض على لسان رسوله ﷺ الجمع بين الأدوية المادية، التي تناسب البدن، والآيات القرآنية التي تناسب الروح، مع ما في الأدوية القرآنية من اطمئنان القلب بالله، وقوته به، وفيه أيضًا تقوية للروح مما يهوّن عليها ألم المرض، ويشفيها بإذن الله تعالى.

ثم أنكر على الذين فرطوا في إهمال الاستشفاء بالقرآن[351]، واقتصروا على الدواء المادي، وعلى

---

348. ابن باديس. 1995م. *تفسير ابن باديس*. ص.144.

349. البخاري. 1422هـ. *صحيح البخاري*. كتاب: الطب. باب: ما أنزل الله من داء إلا أنزل له شفاء. ج.7: 122. رقم الحديث: 5678.

350. البخاري. 1422هـ. *صحيح البخاري*. كتاب: الطب. باب: النفث في الرقية. ج.7: 133. رقم الحديث: 5748.

351. من الناس من لا يؤمن بالاستشفاء بالقرآن، مع ورود الآيات والأحاديث الصحيحة في ذلك، منها قوله تعالى: ﴿وَنُنَزِّلُ مِنَ ٱلْقُرْءَانِ مَا هُوَ شِفَآءٌ وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ﴾ [الإسراء 17: 82]. والأحاديث في ذلك كثيرة منها حديث عائشة ﷺ: «أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ كَانَ إِذَا اشْتَكَى نَفَثَ عَلَى نَفْسِهِ بِالْمُعَوِّذَاتِ، وَمَسَحَ عَنْهُ بِيَدِهِ، فَلَمَّا اشْتَكَى وَجَعَهُ الَّذِي تُوُفِّيَ فِيهِ، طَفِقْتُ أَنْفِثُ عَلَى نَفْسِهِ

العكس منهم الذين أهملوا الدواء المادي، وزهّدوا الناس فيه، واتخذوا لهم من العلاج بالقرآن سبيلًا إلى المعاش، متناسين أنواع شفاء القرآن الروحي والاجتماعي، التي هي المقصود بالمقام الأول من تنزيله، واقتصروا على الاسترزاق به[352]، فعكسوا الأمر، ووقعوا في المحظور من عدة وجوه، ثم رغّبهم بالتوسط بين الأمرين والجمع بينهما، دون غلو ولا تقصير، مع التوكل على رب العالمين[353].

وهذا التنزيل من ابن باديس فيه تلميح على ما كان في عصره من إنكار غلاة الصوفية للتداوي؛ فقد انتقدوا التداوي، بحجة أنّ كل شيء يكون بقضاء وقدر، فلا حاجة إلى التداوي[354]، وفي تنزيله ردّ عليهم، من الآية نفسها، ومن السنة النبوية أيضًا التي حثّ فيها النبي ﷺ على التداوي.

وعلى العكس منهم فقد وُجدت طائفة تؤمن بالعلاج المادي فقط، مهملة للاستشفاء بالقرآن، وفي تنزيل ابن باديس السابق توسط بين الأمرين، وهو يُعطي ملمحًا من ملامح حياته الشخصية، وهو ما كان عليه ﵀ من فهم آيات القرآن، والاعتدال، والتوسط، وعدم التطرف.

المطلب الرابع: القرآن شفاء للقلوب

بِالْمُعَوِّذَاتِ الَّتِي كَانَ يَنْفِثُ، وَأَمْسَحُ بِيَدِ النَّبِيِّ ﷺ عَنْهُ». البخاري. 1422هـ. *صحيح البخاري*. كتاب المغازي. باب مرض النبي ﷺ ووفاته. ج.6. ص. 11. رقم الحديث: 4439.

352. لا بأس بأخذ الراقي أجرًا على رقيته، بشرط أن تكون رقية شرعية، ويدلّ على ذلك حديث ابن عباس أَنَّ نَفَرًا مِنْ أَصْحَابِ النَّبِيِّ ﷺ مَرُّوا بِمَاءٍ، فِيهِمْ لَدِيغٌ أَوْ سَلِيمٌ، فَعَرَضَ لَهُمْ رَجُلٌ مِنْ أَهْلِ الماءِ، فَقَالَ: هَلْ فِيكُمْ مِنْ رَاقٍ، إِنَّ فِي الماءِ رَجُلًا لَدِيغًا أَوْ سَلِيمًا، فَانْطَلَقَ رَجُلٌ مِنْهُمْ، فَقَرَأَ بِفَاتِحَةِ الكِتَابِ عَلَى شَاءٍ، فَبَرَأَ، فَجَاءَ بِالشَّاءِ إِلَى أَصْحَابِهِ، فَكَرِهُوا ذَلِكَ وَقَالُوا: أَخَذْتَ عَلَى كِتَابِ اللَّهِ أَجْرًا، حَتَّى قَدِمُوا المَدِينَةَ، فَقَالُوا: يَا رَسُولَ اللَّهِ، أَخَذَ عَلَى كِتَابِ اللَّهِ أَجْرًا، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «إِنَّ أَحَقَّ مَا أَخَذْتُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا كِتَابُ اللَّهِ». البخاري. 1422هـ. *صحيح البخاري*. كتاب الطب. باب الشرط في الرقية بقطيع من الغنم. ج.7. ص. 131. رقم الحديث: 5737.
لكن ينبغي على الراقي أن لا يكون القصد من رقيته هو المال فقط؛ بل يبتغي الأجر والمثوبة من الله ﷻ، ويراعي ظروف المريض، فلا يكلّفه ما لا يطيق.

353. ابن باديس. 1995م. *تفسير ابن باديس*. ص. 146.

354. انظر: النووي. أبو زكريا محيي الدين يحيى بن شرف. 1392. *المنهاج شرح صحيح مسلم بن الحجاج*. بيروت: دار إحياء التراث العربي. ط.2. ج.14. ص.191.

شكا ابن باديس حال القلوب وما يعتريها من أمراض، عند تفسيره لقول الله ﷻ: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَوۡلَا نُزِّلَ عَلَيۡهِ ٱلۡقُرۡءَانُ جُمۡلَةٗ وَٰحِدَةٗۚ كَذَٰلِكَ لِنُثَبِّتَ بِهِۦ فُؤَادَكَۖ وَرَتَّلۡنَٰهُ تَرۡتِيلٗا ٣٢﴾[355]، فقال: "قلوبنا معرضة لخطرات الوسواس، بل للأوهام والشكوك، فالذي يثبتها ويدفع عنها الاضطراب ويربطها باليقين هو القرآن العظيم، ولقد ذهب قوم مع تشكيكات الفلاسفة وفروضهم ومماحكات المتكلمين ومناقضاتهم، فما ازدادوا إلّا شكًا، وما ازدادت قلوبهم إلّا مرضًا"[356]، وكأنه يشير إلى ما يحصل في زمانه من كلام الفلاسفة، التي سيطرت على الفكر الإسلامي، [357] فحاول محاربتها بطرق متعددة منها ما ورد في هذا النص.

وأضاف إلى ما سبق أنّ القلوب معرّضة لران المعصية التي تُظلِم منها وتقسو، حتى تحجب عنها الحقائق، والذي يجلو عنها الران، ويزيل منها تلك القسوة، ويكشف لها حقائق العلم، ويوضح لها سبل المعرفة هو القرآن العظيم.

وكلامه هذا يؤيده قول الله ﷻ: ﴿وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَۖ وَيُعَلِّمُكُمُ ٱللَّهُۗ﴾[358]، فتحقيق التقوى، بالرجوع إلى القرآن، والعمل بما جاء فيه، سبب لحصول العلم النافع.

ثم أردف سببًا هامًا في حاجتنا الماسّة للقرآن، فقال: "وقلوبنا معرّضة للضعف عن القيام بأعباء التكليف، وما نحن مطالبون به من الأعمال، والذي يجدد لنا فيها القوة، ويبعث فيها الهمة، هو القرآن

---

355. القرآن. الفرقان 25: 32.

356. ابن باديس. 1995م. *تفسير ابن باديس*. ص. 179.

357. طالبي. 1968. *آثار ابن باديس*. ج.1. ص. 18.

358. القرآن. البقرة 1: 282.

العظيم"[359].

والمتأمل لقوله هذا يجد أنه مستنبَط من قول الله ﷻ لرسوله ﷺ في بداية الدعوة: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡمُزَّمِّلُ ۝١ قُمِ ٱلَّيۡلَ إِلَّا قَلِيلٗا ۝٢ نِّصۡفَهُۥٓ أَوِ ٱنقُصۡ مِنۡهُ قَلِيلًا ۝٣ أَوۡ زِدۡ عَلَيۡهِ وَرَتِّلِ ٱلۡقُرۡءَانَ تَرۡتِيلًا ۝٤ إِنَّا سَنُلۡقِي عَلَيۡكَ قَوۡلٗا ثَقِيلًا ۝٥﴾[360]، ففي هذه الآية أمر الله ﷻ بترتيل القرآن في بداية الرسالة؛ لأنّ قراءته بتدبر وتفكر في قيام الليل تعين على تحمّل الأعباء، والقيام بالتكاليف، وتبعث الهمة لأداء المهمات[361].

ثم ختم حديثه في هذا الجانب بوصية بيّن فيها أنّ القرآن سبب النجاة في هذه الحياة المليئة بالمتاعب والفتن، فقال: "لا نجاة لنا من هذا التيه الذي نحن فيه والعذاب المنوَّع الذي نذوقه ونقاسيه إلا بالرجوع إلى القرآن؛ إلى علمه وهديه، وبناء العقائد والأحكام والآداب عليه، والتفقّه فيه وفي السنة النبوية وشرحه وبيانه، والاستعانة على ذلك بإخلاص القصد، وصحة الفهم، والاعتضاد بأنظار العلماء الراسخين، والاهتداء بهديهم في الفهم عن رب العالمين"[362].

ويظهر من كلامه السابق أنه كان يعيش في فترة حرجة – لما كان يعانيه هو ومجتمعه في ظل الاستعمار الفرنسي– وكان يرى أنه لا سبيل للخلاص من ذلك الوضع إلا بالعودة إلى القرآن، قراءة وتدبرًا وتطبيقًا، فجعل يحضّ الناس على ذلك، ويذكّرهم بالإخلاص لله ﷻ؛ فإذا علم الله صدقهم جعل لهم فرجًا ومخرجًا.

خلاصة المبحث:

---

[359]. ابن باديس. 1995م. *تفسير ابن باديس*. ص. 180.

[360]. القرآن. المزمل 73: 1– 5.

[361]. القرطبي. 1964م. *الجامع لأحكام القرآن*. ج.19. ص.38.

[362]. ابن باديس. 1995م. *تفسير ابن باديس*. ص. 175.

1- أدرك ابن باديس أنّ من أهم سمات القرآن سمة الواقعية.

2- القرآن الكريم عند ابن باديس هو الكتاب الحي لهذه الأمة، له وظيفة تربوية في واقعها.

3- أسهم ابن باديس في تصحيح تعامل المسلمين مع القرآن؛ وانتقد الوقوف عند الجانب الشكلي للقراءة، ودعا إلى تدبره، ثم تحويله إلى خلق شخصي، وأسلوب عملي، ودستور لسياسة الحكم.

4- استخدم ابن باديس التنزيل غير المباشر للآيات.

5- اهتمام ابن باديس بتنزيل الآيات على الواقع من الناحية التأصيلية والتطبيقية.

6- استدلال ابن باديس بالأحاديث النبوية في تنزيل الآيات على الواقع.

UNIVERSITI SAINS ISLAM MALAYSIA
جامعة العلوم الإسلامية الماليزية
ISLAMIC SCIENCE UNIVERSITY OF MALAYSIA

المبحث الخامس

تنزيل الآيات على الواقع في مجال طلب العلم

تمهيد:

اهتم القرآن بالعلم اهتمامًا كبيرًا، ووردت فيه آيات كثيرة تحث على طلب العلم، وتبيّن مكانة العلماء، منها قول الله ﷻ: ﴿قُلْ هَلْ يَسْتَوِي ٱلَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ۗ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُوْلُواْ ٱلْأَلْبَٰبِ ۝٩﴾[363]؛ لأنّ المرء كلما ازداد علمًا زاد إيمانه، وزادت خشيته لله ﷻ، ولقد اعتنى ابن باديس بتعليم الناس، وتوافَد عليه الطلبة من كل حدب وصوب، وانتشر خبر تدريسه في مسجد سيدي قموش بقسنطينة، حتى بلغ عدد الطلبة ما يقارب ألف طالب، وكان يلقي عليهم الدروس في جوانب مختلفة من بعد صلاة الفجر إلى بعد صلاة العشاء كل يوم ماعدا يوم الجمعة، وأهم تلك الدروس تفسيره لآيات القرآن الكريم[364]، وكان يحث الناس دائمًا على طلب العلم، وعلى العمل به، ومما قاله في ذلك: "فعلى كل مؤمن أن يسلك هذا السلوك، فيحضر مجالس العلم التي تذكره بآيات الله، وأحاديث رسوله ما يصحح عقيدته، ويزكّي نفسه، ويقوّم عمله، وليطبق ما يسمعه على نفسه، وليجاهد في تنفيذه على ظاهره وباطنه، وليداوم على هذا، حتى يبلغ إلى ما قدر له من كمال فيه، فيرجع وهو قد صار قدوة لغيره في حاله وسلوكه"[365].

ويُلاحَظ من كلامه السابق حرصه على تذكير الناس بالهدف الرئيس من طلب العلم وهو تصحيح

---

[363]. القرآن. الزمر 39: 9.

[364]. المدني. أحمد توفيق. 1977. الذكرى 37 لوفاة ابن باديس. *مجلة الأصالة*. العدد 44. أبريل. ص64.

[365]. ابن باديس. 1995م. *تفسير ابن باديس*. ص. 240.

العقيدة، وتزكية النفس، وتوصيتهم بالاستمرار في طلب العلم، وتطبيقه في سلوكهم؛ حتى يكونوا قدوة لغيرهم، ولا شك أنّ العلم وسيلة للعمل، وبينهما علاقة تكاملية، وقد رغّب الله ﷻ المؤمنين في كتابه بطلب العلم وحثّهم عليه، ولذا نجد ابن باديس يركّز على هذه المسألة في تفسيره؛ لما كان يعانيه الشعب الجزائري من تضليل الاستعمار، وانتشار البدع والصوفية، فكان يرى أنه لا مجال لمقاومة الاستعمار والقضاء على خرافات الصوفية إلا بالعلم، ولم يُغفِل ابن باديس تعليم المرأة المسلمة التي عانت من الجهل والحرمان بسبب العادات والتقاليد الفاسدة، والفهم الخاطئ للدين الإسلامي، ورأى أنّ حرية المرأة تتحقق بالتعليم الديني والتعليم الوطني[366]. وناسب أن ينزل الآيات التي ورد فيها طلب العلم على واقعه؛ لحاجة الناس إليه، ولما كان يريده من إصلاح لهم، ولم يكن يذكر عند تفسير الآية تفاصيل الواقع وما يدور فيه من أحداث؛ بل بيّن كيفية العمل بهذه الآيات في واقع المسلمين، وما يترتب على ذلك من أثر في حياتهم.

وبعد استقراء تفسيره جمعت الآيات في مجال طلب العلم وقسمتها حسب المطالب الآتية:

المطلب الأول: الترغيب في طلب العلم

بعد أن فسّر ابن باديس قول الله ﷻ: ﴿قُلْ أَنزَلَهُ ٱلَّذِى يَعْلَمُ ٱلسِّرَّ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا ۝٦﴾[367]، ذكر أنّ الله ﷻ دعانا إلى العلم ورغّبنا فيه في كتابه، وأخبرنا أنه خلق لنا ما في السماء وما في الأرض، ثم أمرنا بالنظر في خلقه[368]، وأنبأنا أنّ في هذه المخلوقات أسرارًا

---

366. إكرام. برحمة. 2018م. *مفهوم التجديد عند الشيخ عبد الحميد بن باديس*. (رسالة ماجستير). الجزائر. جامعة أبو بكر بلقايد. ص50.

367. القرآن. الفرقان 25: 6.

368. الآيات في ذلك كثيرة، منها قوله تعالى: ﴿فَلْيَنظُرِ ٱلْإِنسَٰنُ إِلَىٰ طَعَامِهِۦٓ ۝٢٤ أَنَّا صَبَبْنَا ٱلْمَآءَ صَبًّا ۝٢٥ ثُمَّ شَقَقْنَا ٱلْأَرْضَ شَقًّا ۝٢٦﴾ [عبس 80: 24- 26]، وقوله تعالى: ﴿أَفَلَا يَنظُرُونَ إِلَى ٱلْإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ ۝١٧ وَإِلَى ٱلسَّمَآءِ كَيْفَ رُفِعَتْ ۝١٨ وَإِلَى ٱلْجِبَالِ كَيْفَ نُصِبَتْ ۝١٩ وَإِلَى ٱلْأَرْضِ كَيْفَ سُطِحَتْ ۝٢٠﴾ [الغاشية 99: 17- 20]. وغيرها.

بيّنها لنا القرآن، وهذا دليل على حجته العلميّة على الخلق، وفيه ترغيب لنا في التبحّر في طلب العلم، والتعمّق في البحث؛ حتى نطّلِع على أسرار آيات الكون، وآيات القرآن؛ فنزداد علمًا، ويزداد الدين حجة وبرهانًا، وبالتالي يعظم شكرنا لله المنعم سبحانه[369].

وهذا تنزيل صحيح للآية، رغّب فيه ابن باديس بتعلّم علوم الكون، التي ذُكرت في كثير من الآيات في القرآن، لتؤكّد أنه من عند الله، قال تعالى: ﴿سَنُرِيهِمْ ءَايَٰتِنَا فِى ٱلْءَافَاقِ وَفِىٓ أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ ۗ أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ ﴿٥٣﴾﴾[370]، فأخبر أنه تعالى يُرِي عباده من الآيات المشهودة التي هي أدلة عقلية ما يبين أنّ القرآن حق[371]،

ولم يُغفل كذلك العلم الشرعي، بل قال أنّه "الأصل الذي تنبني عليه سعادة الدنيا والأخرى، وأنه هو الأساس لكل أمر من أمور الدين والدنيا"[372].

المطلب الثاني: الاقتداء بنبي الله سليمان عليه السلام والهدهد في طلب العلم

إنّ من أعظم النعم التي أنعم بها الله ﷻ على نبيه سليمان عليه السلام نعمة العلم، قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا دَاوُۥدَ وَسُلَيْمَٰنَ عِلْمًا ۖ﴾[373] فالمرء دون علم يكون في ظلمات، وبالعلم يخرج من هذه الظلمات إلى النور، وبه يعرف حق الله عليه، وقد أشار ابن باديس إلى ذلك عند تفسيره لقول الله ﷻ: ﴿وَوَرِثَ

---

369. ابن باديس. 1995م. *تفسير ابن باديس*. ص. 160- 161.

370. القرآن. فصلت 41: 53.

371. رضا. محمد رشيد. 1990. *تفسير القرآن الحكيم (تفسير المنار)*. مصر: الهيئة المصرية العامة للكتاب. ج.3. ص.169.

372. المرجع نفسه. ص.254.

373. القرآن. النمل 27: 15.

سُلَيۡمَٰنُ دَاوُۥدَۖ وَقَالَ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ عُلِّمۡنَا مَنطِقَ ٱلطَّيۡرِ وَأُوتِينَا مِن كُلِّ شَيۡءٍۖ إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ ٱلۡفَضۡلُ ٱلۡمُبِينُ ﴿١٦﴾﴾[374]؛ فبعد أن ذكر تفسير الآية أشار إلى فضل الله ﷻ على نبيه سليمان؛ فقد آتاه العلم، وفي هذا ترغيب لنا في طلب العلم، وتحصيل كل ما نحتاجه من أمور الدنيا، وفيه تشويق إلى ما في هذا الكون من عالم الأحياء، وعالم الجمادات، وفيه أيضًا بعث للهمة إلى التحلي بأسباب العظمة من العلم والقوة، والاقتداء بهذا النبي العظيم والسير على خطاه في هذا الجانب[375].

ثم علّق على الهدهد الذي كان له حسن بيان، وترتيب أخبار، وكان له أسلوب بديع، في قصته مع سليمان ﷺ، ونوّه بأنّ السبب في ذلك تحصّنه بالعلم، فقد استطاع أن يأتي بنبأ المتيقّن، ويفصّله بشرح حالة ملكة سبأ الدنيوية والدينية، وكان متثبّتًا في خبره، بارعًا في تصويره، مستدلًا في تقريره، بصيرًا بمكائد الشيطان للإنسان، خبيرًا بترتيب البراهين وحسن الاستنتاج، وفي ذلك حثّ لنا على أن نسلك هذا المسلك عند الإخبار بأي خبر، فنبحث وننظر، ونستدلّ ونعلّل، ونرتّب أفكارنا كما رتبها هذا الهدهد، فلنا فيه قدوة حسنة، وقد ذكر الله ﷻ قصته في كتابه تنبيهًا لنا على أخذ العلم من كل أحد، والاستفادة من كل المخلوقات، والشعور دائمًا بالنقص في هذا المجال؛ للسلامة من شر العجب، والكبر، والغرور[376].

وابن باديس أدرك أهمية العلم، واستنبط من قصة سليمان ﷺ أنّ العلم سبب للعظمة، ولم يقتصر على الترغيب في العلم الشرعي؛ بل حثّ على طلب العلم في مجال العلوم الكونية؛ لأنها تبيّن عظمة الله وقدرته، فالعلم بها هو تدبّر للقرآن واستجابة لأوامره، وقد وردت آيات كثيرة تدل على ذلك، منها قول الله ﷻ: ﴿إِنَّ فِي خَلۡقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَٱخۡتِلَٰفِ ٱلَّيۡلِ وَٱلنَّهَارِ وَٱلۡفُلۡكِ ٱلَّتِي تَجۡرِي فِي ٱلۡبَحۡرِ

---

374. القرآن. النمل 27: 16.

375. ابن باديس. 1995م. *تفسير ابن باديس*. ص. 259.

376. ابن باديس. 1995م. *تفسير ابن باديس*. ص. 278.

بِمَا يَنفَعُ ٱلنَّاسَ وَمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مِن مَّآءٍ فَأَحۡيَا بِهِ ٱلۡأَرۡضَ بَعۡدَ مَوۡتِهَا وَبَثَّ فِيهَا مِن كُلِّ دَآبَّةٖ وَتَصۡرِيفِ ٱلرِّيَٰحِ وَٱلسَّحَابِ ٱلۡمُسَخَّرِ بَيۡنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلۡأَرۡضِ لَأٓيَٰتٖ لِّقَوۡمٖ يَعۡقِلُونَ ﴿١٦٤﴾ [377] وغيرها من الآيات التي لا يتسع المقام لذكرها هنا.

وقول ابن باديس (أنّ علينا أن نأخذ العلم من كل أحد) فيه دلالة على تواضعه في طلب العلم، ولعله أراد بقوله هذا أن نأخذ العلم من كل أحد أعلم منا بالمجال الذي تكلم فيه، وإن كان أصغر منا سنًّا أو مكانة، أو أقل منّا علمًا بالمجالات الأخرى.

المطلب الثالث: الحث على المداومة في طلب العلم

يقول المولى ﷻ: ﴿فَتَعَٰلَى ٱللَّهُ ٱلۡمَلِكُ ٱلۡحَقُّۗ وَلَا تَعۡجَلۡ بِٱلۡقُرۡءَانِ مِن قَبۡلِ أَن يُقۡضَىٰٓ إِلَيۡكَ وَحۡيُهُۥۖ وَقُل رَّبِّ زِدۡنِي عِلۡمٗا ﴿١١٤﴾﴾ [378]، وهذه الآية الكريمة فيها إشارة إلى أنّ مجال العلم والتعلم واسع أمام الناس، فالعلم بحر لا حدّ له، وينبغي على كل إنسان أن يطلب العلم الشرعي حتى يعبد الله على بصيرة، ويحيا حياة كريمة، وقد نوّه ابن باديس عند تفسيرها إلى أنه لا حياة إلّا بالعلم، وإنما يكون العلم بالتعلُّم، ومهما بلغ الإنسان من درجة في العلم، فلن يزال بحاجة إليه، ولن تزال أمامه فيما علمه أمور يجهلها، فعليه أن يتعلّم دائمًا، وأن يطلب المزيد، ولذا أمر الله نبيه ﷺ وهو المعلِّم الأعظم- أن يطلب من الله أن يزيده علمًا كما في هذه الآية.

ثم ذكر فئة من الناس اكتفوا بما حصلوا عليه من علم؛ فوقف بهم عند ما انتهوا إليه، وكان ذلك سببًا في غرورهم، وتكلّمهم بما لم يعلموا، فضلوا وأضلّوا، وكانوا فتنةً على الناس وعلى أنفسهم وبلاءً عظيمًا.

---

377. القرآن. البقرة 2: 164.

378. القرآن. طه 20: 114.

وأشار إلى أنّ هذه الآية الكريمة ومثلها من الآيات يداوي بها نفسه من ابتُلي بهذا المرض، فيتجرّد عن جموده وغروره، ويزداد علمًا، ثم وصّى طالب العلم وحذّره من أن يقف على طلب العلم ما دام فيه زمن من الحياة، وأن يقتدي بالنبي ﷺ حيث ظلّ يطلب من الله تعالى أن يزيده علمًا، بما يلقيه في قلبه من نور، وما يوفقه إليه تقوى الله، والعمل بما علمه[379].

ويظهر من تنزيله هذا اهتمامه الشديد بطلب العلم؛ لأنّ الحالة العلمية كانت قد تدهورت بسبب الاستعمار الفرنسي[380]، فرأى ابن باديس أنّ أهم السبل لإنقاذ مجتمعه من وهدة الاستعمار هو العلم، فعمل جاهدًا على نشره، وكان لذلك عظيم الأثر في تحرّر بلاده.

وهذا تنزيل جزئي صحيح للآية؛ حيث نزّل الجزء الأخير منها على الواقع؛ وكان تنزيله لها صحيحًا مستدلًا عليه بما جاء في السنة العملية، وضرب فيه مثالًا من الواقع لمن اكتفى بما عنده من علم، مبينًا أثر ذلك عليه.

المطلب الرابع: وجوب العمل بالعلم

بعد أن رغّب ابن باديس الناس في طلب العلم وبيّن أهمية الاستمرار في ذلك، أشار إلى وجوب العمل بهذا العلم، فبعد تفسيره لقول الله ﷻ: ﴿يسٓ ۝١﴾[381]، بيّن أنّ الإنسان قد تخفى عليه بعض المعاني والحكم الإلهية، فيعجز عن إدراكها، ولكن عليه أن يتذكّر ثبوت الحق والحكمة والنعمة في كل ما عجز عقله عن إدراكه، ثم نزّل الآية على الواقع فكتب عنوانًا "بناء العمل على هذا العلم" وذكر تحت هذا العنوان تطبيقاتٍ عملية تبيّن لنا كيفية عمل الإنسان في أربعة جوانب، سيتم ذكرها باختصار:

---

379. ابن باديس. 1995م. *تفسير ابن باديس*. ص. 343- 345.

380. راجع الفصل الأول من هذا البحث.

381. القرآن. يس 36: 1.

1- العمل في خلق الله: يكون بالنظر والبحث والتحليل، واستكشاف الحقائق الكونية، واستنباط الفوائد العلمية والعملية، إلى أبعد حد توصله إليه هذه المعلومات.

2- العمل في قدر الله: يكون بالاعتبار في تدابير القدر، والاتعاظ بأحوال البشر، وإدراك قواعد الحياة من سير الحياة.

3- العمل في شرع الله: يكون بفهم الآيات والأحاديث، ومعرفة مقاصد الشرع، وتحصيل الأحكام، وأدلة العقائد، وكذلك معرفة الآداب وفوائدها، والمفاسد وأضرارها.

4- العمل في كتاب الله: يكون بفهم الآيات وتدبرها، وإدراك ما جاء به من تنبيهات، ووجوه دلالات، واستخراج علومه من منطوقه ومفهومه، على ما دلت عليه لغة العرب، وما جاء من التفاسير المأثورة، وما نُقل من مفهوم الأئمة الثقات[382].

والناظر في كلامه يجد أنه رسّخ قيمة العمل بالعلم، وبيّن بعض الجوانب التطبيقية التي تجعلنا نسير على نفس المنهج؛ حتى نحقق الغاية من العلم، ونعبد الله على بصيرة، وكان هذا مبدأً أساسيًا من مبادئه التي كان ينادي بها في عملية التدريس في كل ما يتعلمه المتعلم من العلوم والفنون[383].

كما يُبين وضوح صور العمل بالعلم، ورسمها للناس بصورة عملية ممكنة التطبيق، فالعلم إنما هو وسيلة لعبادة الله ﷻ، ولم يستحسن الشرع أيّ علم لا يفيد عملًا[384]، وأعظم استثمار للعلم الشرعي هو العمل به.

المطلب الخامس: الحضّ على نشر العلم

---

[382]. ابن باديس. 1995م. *تفسير ابن باديس*. ص. 283- 286.

[383]. عواريب. لخضر بن العربي. 2010م. "نظرات تربوية في المنهج الإصلاحي الباديسي". *مجلة العلوم الإنسانية والاجتماعية*. الجزائر: جامعة قاصدي مرباح. عدد (1). ديسمبر. ص. 233.

[384]. الشاطبي. إبراهيم بن موسى بن محمد. 1997. *الموافقات*. القاهرة: دار ابن عفان. ج.1. ص.83.

إنّ أمتنا الإسلامية لن ترتقي إلا إذا استنارت بنور العلم، ولا يبني مجدها إلا العلماء، ويكون ذلك بنشر العلم بين أفراد المجتمع، ولما كان الشعب الجزائري في عصر ابن باديس يعيش في ظل الاستعمار الفرنسي الذي حرص على تفشي الجهل بين الجزائريين، فإنّ ابن باديس تأمل هذا الواقع، ورأى أنه لن يعود للأمة الإسلامية مجدها إلا بالعلم والتعلم، فناسب أن ينزل قول الله ﷻ: ﴿يَٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ قَدۡ جَآءَكُمۡ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمۡ كَثِيرٗا مِّمَّا كُنتُمۡ تُخۡفُونَ مِنَ ٱلۡكِتَٰبِ وَيَعۡفُواْ عَن كَثِيرٖۚ قَدۡ جَآءَكُم مِّنَ ٱللَّهِ نُورٞ وَكِتَٰبٞ مُّبِينٞ ١٥ يَهۡدِي بِهِ ٱللَّهُ مَنِ ٱتَّبَعَ رِضۡوَٰنَهُۥ سُبُلَ ٱلسَّلَٰمِ وَيُخۡرِجُهُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ بِإِذۡنِهِۦ وَيَهۡدِيهِمۡ إِلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ ١٦﴾[385] على ما حدث في واقعه، وضرب لنا مثلًا بالنبي ﷺ الذي أرسله الله ﷻ لمجتمع كان يعيش في جاهلية، فأخرجهم الله بالقرآن الكريم –وما فيه من العلوم– من الظلمات إلى النور، ثم قال: "هذا نبينا ﷺ نور وبيان، وهذا كتابنا نور وبيان؛ فالمسلم المؤمن بهما المتبع لهما له حظه من هذا البيان: فهو على ما يسّر له من العلم ولو ضئيلًا يبينه وينشره، يعرّف به الجاهل، ويرشد به الضال، وهو بذاك وبعمله الصالح كالنور يشعّ على من حوله، وتتسع دائرة إشعاعه وتضيق بحسب ما عنده من علم وعمل، فعلى المسلم أن يعلم هذا من نفسه، ويعمل عليه، ويضرع إلى الله دائما في دعواته أن يمدّه بنوره"[386].

وكلامه هذا مأخوذ من قول النبي ﷺ «بَلِّغُوا عَنِّي وَلَوْ آيَةً»[387]، والتبليغ ولو كان بالشيء اليسير

---

385. القرآن. المائدة 5: 15– 16.

386. ابن باديس. 1995م. *تفسير ابن باديس*. ص. 330.

387. البخاري. 1422هـ. *صحيح البخاري*. كتاب أحاديث الأنبياء. باب ما ذكر عن بني إسرائيل. ج.4: 170. رقم الحديث: 3461.

يزرع في الشخص الطموح والإرادة للاستمرار في تعليم الناس، فينتشر العلم، ويزول الجهل، وترتقي الأمم.

خلاصة المبحث:

1- أدرك ابن باديس أهمية العلم وحاجة مجتمعه إليه، ودوره الكبير في إصلاح حالهم، مثبتًا بذلك ملاءمة القرآن الكريم لحاجة كل العصور؛ فقد حثّ القرآن على العلم والدعاء بالاستزادة منه.

2- ربط ابن باديس التعليم بالقرآن الكريم، دستور الأمة ومنهجها الرباني، ومما قال في ذلك: "فإننا -والحمد لله- نربّي تلامذتنا على القرآن من أول يوم، ونوجه نفوسهم إلى القرآن في كل يوم"[388].

3- حرصه على جانب التعليم جعله يحرص على تنزيل الآيات على واقعه الذي رغِبَ الاستعمار في جهله وتضليله.

4- كان تنزيله للآيات تنزيلًا صحيحًا فيه نوع من الإطالة والاستطراد؛ فقد تمّ اختصار كثيرٍ من كلامه في تنزيل الآية على واقعه، والاقتصار على أهم ما جاء فيه.

[388]. طالبي. 1968. *آثار ابن باديس*. ج.1. ص.80.

المبحث السادس

تنزيل الآيات على الواقع في الزهد والرقائق

تمهيد:

إنّ المتأمل في واقعنا اليوم يرى كثيرًا من الناس يعيشون في غفلة عن الآخرة وتعلق بملذات الحياة الدنيا، ولا يفيق أكثرهم إلا على أعتاب القبر.

وقد نبهنا الله ﷻ إلى ذلك بقوله: ﴿أَلۡهَىٰكُمُ ٱلتَّكَاثُرُ ۝١ حَتَّىٰ زُرۡتُمُ ٱلۡمَقَابِرَ ۝٢﴾[389]، وذكر لنا سبحانه في كتابه الكريم كثيرًا من الآيات التي تربطنا باليوم الآخر، وتصور لنا حقيقة الدنيا وحقارتها، وقد اعتنى ابن باديس بهذا الجانب واعتبر "العناية الشرعية متوجهة كلها إلى إصلاح النفوس، وأنّ صلاح الإنسان وفساده إنما يقاسان بصلاح نفسه وفسادها"[390]، وهو يرى بذلك أنّ التربية الذاتية للشخص هي الوسيلة الأولى لصلاح المجتمع، وهذه التربية نستمدها من القرآن الكريم، فكان يعظ الناس بالقرآن، ويذكّرهم بما فيه من آيات الترغيب والترهيب، ويربط آياته بواقعهم؛ حتى ترتبط قلوبهم بخالقهم وتلين له، وتزهد في ملذات الدنيا طمعًا فيما أعده لهم في جنات النعيم.

وبعد تتبّعت الآيات التي نزلها ابن باديس على الواقع وقسمتها حسب المطالب الآتية:

المطلب الأول: الحث على اغتنام العمر في طاعة الله

بيّن الله ﷻ أهمية الوقت، ووجوب اغتنامه في طاعته بآيات كثيرة، منها قول الله سبحانه: ﴿وَهُوَ

---

[389]. القرآن. التكاثر 102: 1-2.

[390]. طالبي. 1968. *آثار ابن باديس*. ج.1. ص.101.

ٱلَّذِى جَعَلَ ٱلَّيۡلَ وَٱلنَّهَارَ خِلۡفَةً لِّمَنۡ أَرَادَ أَن يَذَّكَّرَ أَوۡ أَرَادَ شُكُورٗا ﴿٦٢﴾[391] وقد ذكر ابن باديس تفسيرها ثم عقّب بفائدة جليلة؛ وهي أنّ الله ﷻ لما جعل الليل والنهار خِلفة لكي نتذكر ونعمل، كان كل منهما صالحًا للعمل الذي يُعمل في الآخر؛ فمن فاته عمل بالنهار قام به في الليل، ومن فاته عمل بالليل قام به في النهار[392]، وهذه الفائدة ذكرها عدد من المفسرين كالقشيري[393] والرازي[394] وغيرهم.

ثم نقل عن الإمام ابن العربي أنه قال: سمعت ذا نشمند الأكبر[395]– يعني الغزالي– يقول: "من الغُبن العظيم أن يعيش الرجل ستين سنة، ينام ليلها فيذهب النصف من عمره لغوًا، وينام نحو سدس النهار راحة فيذهب له ثلثاه، ويبقى له من العمر عشرون سنة، ومن الجهالة والسفاهة أن يتلف الرجل ثلثي عمره في لذة فانية، ولا يتلف عمره سهرة في لذة باقية، عند الغني الوفي، الذي ليس بعديم ولا ظلوم"[396].

المطلب الثاني: الحث على ذكر الله

ذكر لنا الله ﷻ موقف نبيَّين كريمَين أنعم الله عليهما، فما كان منهما إلّا أن نسبا الفضل لله ﷻ، وحمدا الله على نعمه، فخلّد الله موقفهما إلى قيام الساعة، قال سبحانه: ﴿وَلَقَدۡ ءَاتَيۡنَا دَاوُۥدَ وَسُلَيۡمَٰنَ عِلۡمٗاۖ وَقَالَا ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى فَضَّلَنَا عَلَىٰ كَثِيرٖ مِّنۡ عِبَادِهِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ﴿١٥﴾[397]، وبعد تفسير ابن باديس لهذه الآية ذكر أنّ من كمال وأدب الأنبياء عليهم الصلاة والسلام الاعتراف لله ﷻ بالفضل، وحمده والثناء

---

391. القرآن. الفرقان 25: 62.

392. ابن باديس. 1995م. *تفسير ابن باديس*. ص. 191.

393. القشيري. عبد الكريم بن هوازن. د. ت. *لطائف الإشارات*. مصر: الهيئة المصرية العامة للكتاب. ط.3. ج.2. ص.648.

394. الرازي. أبو عبد الله محمد بن عمر. 1420. *مفاتيح الغيب*. بيروت: دار إحياء التراث العربي. ط.3. ج.24. ص.480.

395. كلمة فارسية تعني عالم العلماء. انظر: ميارة. محمد بن أحمد. 2008. *الدر الثمين والمورد المعين*. القاهرة: دار الحديث. ص. 179.

396. المرجع السابق. ص. 192.

397. القرآن. النمل 27: 15.

عليه بعبارات لا تصدر إلا منهم، ولذلك أوصانا قائلًا: "أذكار الأنبياء صلوات الله عليهم من حمد وتسبيح وتهليل وغيرها أفضل الأذكار، وأجمعها وأسلمها، وقد اشتمل الكتاب العزيز على كثير منها، فعلى المسلم الحريص على الخير بها علمًا وعملًا"[398].

والأنبياء عليهم السلام يختارون أفضل المعاني في ذكرهم لله ﷻ ودعائهم، ولذا كان التمعن في ذكرهم والاقتداء بهم في قول هذه الأذكار مهم بالنسبة لنا، مثل دعوة ذي النون عليه السلام التي قال رَسُولُ اللهِ ﷺ عنها: «دَعْوَةُ ذِي النُّونِ إِذْ دَعَا وَهُوَ فِي بَطْنِ الحُوتِ: لاَ إِلَهَ إِلاَّ أَنْتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنْتُ مِنَ الظَّالِمِينَ، فَإِنَّهُ لَمْ يَدْعُ بِهَا رَجُلٌ مُسْلِمٌ فِي شَيْءٍ قَطُّ إِلاَّ اسْتَجَابَ اللَّهُ لَهُ»[399].

وبما أنّنا نعيش في عصر التطور التكنلوجي فقد أصبح من السهل أن نجمع أذكار الأنبياء ونتناقلها عبر وسائل التواصل؛ لنقتدي بهم، ونشر الخير للمجتمع.

المطلب الثالث: الاقتداء بالصالحين

بعد أن ذكر الله ﷻ صفات عباده الصالحين، وأعمالهم التي امتدحهم بها، ذكر ما أعدّ لهم من نعيم مقيم على تلك الأعمال؛ لنحذو حذوهم، ونسير على خطاهم، فقال سبحانه: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ يُجۡزَوۡنَ ٱلۡغُرۡفَةَ بِمَا صَبَرُواْ وَيُلَقَّوۡنَ فِيهَا تَحِيَّةٗ وَسَلَٰمًا ٧٥ خَٰلِدِينَ فِيهَاۚ حَسُنَتۡ مُسۡتَقَرّٗا وَمُقَامٗا ٧٦﴾[400]، وفي معرض تفسير ابن باديس لهذه الآية تطرّق إلى مسألة القدوة وأهميتها في حياتنا، فذكر أنّ هؤلاء السالكين، لما سلكوا الصراط المستقيم بعمل الصالحات، انتهى بهم السير إلى أحسن مقام،

---

398. ابن باديس. 1995م. *تفسير ابن باديس*. ص. 255.

399. الترمذي. 1998م. *سنن الترمذي*. أبواب الدعوات. ج.5. ص. 409. رقم الحديث: 3505. وهو حديث حسن. حسنه محقق المسند. ط الرسالة. رقم الجزء: 3. ص 66. رقم الحديث: 1462. وصححه الحاكم ووافقه الذهبي.

400. القرآن. الفرقان 25: 75- 76.

إلى جنات النعيم، فإذا اشتقنا إلى نهايتهم يجب علينا أن نتمسك ببدايتهم، ونزِن أعمالنا بأعمالهم، وأحوالنا بأحوالهم، ومن جعل ذلك همه، وكان صادقًا في عزمه، صبر كما صبروا، ورجى أن يظفر بما ظفروا[401].

وحاجتنا اليوم ماسة إلى القدوة الصالحة، بسبب ما نراه من غياب لها، وكثرة أصحاب الأهواء والشبهات، فإذا أردنا أن نحقق النصر والتمكين وجب علينا اتباع آثار الصالحين، لكي يرتقي المجتمع دينيًا وأخلاقيًا واجتماعيًا، فيتحقق معنى العبودية، والغاية التي خلقنا الله لأجلها، ونتمكن من النصر على الأعداء، وهذا ما لمسه ابن باديس في هذه الآية الكريمة؛ فنزّلها على واقعه لحاجة الأمة إليها، فإذا تمسك الإنسان ببداية الصالحين من قبله وقارن أعماله بأعمالهم، وجعل لنفسه هدفًا بالوصول إلى ما وصلوا إليه -بشرط أن يكون صادقًا وصابرًا- وصل إلى ما وصلوا إليه، ونال ما نالوه من الدرجات العالية في جنات الخلود.

ومن هذا الموضع وغيره يظهر انتباه ابن باديس بأنّ الإصلاح لا بد أن يكون له واقع عملي، وخطة مرحلية، ومُعينات، ومنها: القدوة.

المطلب الرابع: تحري الكسب الحلال

إنّ تعاليم الإسلام تقتضي وجوب تحري الحلال في المأكل والمكسب، وينبغي على المسلم أن يطرق السبل المشروعة في الكسب الحلال، وقد حث الله ﷻ عباده على تحري الكسب الحلال في كتابه، ومن ذلك قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلرُّسُلُ كُلُواْ مِنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَٱعۡمَلُواْ صَٰلِحًاۖ إِنِّي بِمَا تَعۡمَلُونَ عَلِيمٞ ٥١﴾[402] وإذا قرأنا تاريخ الجزائر نجد أنّ الاستعمار ساعد على انتشار الجرائم نتيجة لانتشار البطالة وانعدام فرص

---

401. ابن باديس. 1995م. *تفسير ابن باديس*. ص. 243.

402. القرآن. المؤمنون 23: 51.

العمل والفقر الشديد الذي كانت تعاني منه البلاد[403] وعند تفسير ابن باديس لهذه الآية وظّف تفسيرها في توجيه المؤمنين إلى تحري الحلال الطيب في المأكل والمشرب –وكل ما به قوام الذات–؛ امتثالًا لأمر الله ﷻ، وابتغاء التوصّل به إلى العمل الصالح، ووجّههم أيضًا إلى تحري أمر الله ونهيه في فعلهم وتركهم، حتى يكون عملهم عملًا صالحًا طيبًا متقبلًا، يمتثلون بذلك أمر الله، ويقصدون قبول عبادتهم ودعائهم لديه، ثم ختم كلامه بأنّ المتحرّي للحق والخير، كثير الصواب، جدير بالتوفيق[404].

وكلامه السابق مستنبط من حديث رسول الله ﷺ «أَيُّهَا النَّاسُ، إِنَّ اللهَ طَيِّبٌ لَا يَقْبَلُ إِلَّا طَيِّبًا، وَإِنَّ اللهَ أَمَرَ الْمُؤْمِنِينَ بِمَا أَمَرَ بِهِ الْمُرْسَلِينَ، فَقَالَ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلرُّسُلُ كُلُواْ مِنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَٱعۡمَلُواْ صَٰلِحًاۖ إِنِّي بِمَا تَعۡمَلُونَ عَلِيمٞ ٥١﴾[405] وَقَالَ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُلُواْ مِن طَيِّبَٰتِ مَا رَزَقۡنَٰكُمۡ﴾[406] ثُمَّ ذَكَرَ الرَّجُلَ يُطِيلُ السَّفَرَ أَشْعَثَ أَغْبَرَ، يَمُدُّ يَدَيْهِ إِلَى السَّمَاءِ، يَا رَبِّ، يَا رَبِّ، وَمَطْعَمُهُ حَرَامٌ، وَمَشْرَبُهُ حَرَامٌ، وَمَلْبَسُهُ حَرَامٌ، وَغُذِيَ بِالْحَرَامِ، فَأَنَّى يُسْتَجَابُ لِذَلِكَ؟»[407].

والتفقّه في كسب الحلال في زمننا هذا الذي اشتبهت فيه الأمور على الناس، يُعدّ من أهم الأمور التي يجب على المسلم العلم بها؛ حتى يبرأ من أيّ كسب حرام، والنَّبِيِّ ﷺ يقول: «يَأْتِي عَلَى النَّاسِ زَمَانٌ، لاَ يُبَالِي المَرْءُ مَا أَخَذَ مِنْهُ، أَمِنَ الحَلاَلِ أَمْ مِنَ الحَرَامِ»[408]، وهذا يكون لضعف الدين وعموم الفتن، وكثرة

---

403. لخضاري. رتيبة. 2014. *السياسة الفرنسية الاقتصادية وأثرها في المجتمع الجزائري*. (رسالة ماجستير) الجزائر: جامعة المسيلة. ص.66.

404. ابن باديس. 1995م. *تفسير ابن باديس*. ص. 356.

405. القرآن. المؤمنون 23: 51.

406. القرآن. البقرة 2: 172.

407. مسلم. د. ت. *صحيح مسلم*. كتاب الزكاة. باب قبول الصدقة من الكسب الطيب وتربيتها. ج.2. ص. 703. رقم الحديث: 1015.

408. البخاري. 1422هـ. *صحيح البخاري*. كتاب البيوع. باب من لم يُبال من حيث كسب المال. ج.3. ص. 55. رقم الحديث: 2059.

الفساد، وتغير الأحوال[409].

المطلب الخامس: الإعراض عن اللغو

عند قول الله ﷻ: ﴿وَإِذَا مَرُّواْ بِٱللَّغۡوِ مَرُّواْ كِرَامٗا ٧٢﴾[410]، بيّن ابن باديس معنى اللغو[411] بأنه القول الباطل والفعل الباطل الذي لا فائدة فيه، ثم نزّل هذه الآية على أبناء مجتمعه ناصحًا لهم، ومبينًا لهم أنّ في إقبالهم على اللغو شغلًا للبال، وتضييعًا للوقت فيه، وتكديرًا للخاطر بظلمته، ثم لفت انتباههم بأنّ لكل كلمة يسمعها الإنسان أو عمل يعمله يشهد أثرها في حياته وإن قلّ، وقد يتبعها مثلها فتنمو وتسوء عاقبتها ولو بعد حين.

ثم ذكر الآثار المترتبة على اللغو والباطل ومنها: أنه بقدر ما يتساهل بالوقوف عليه يقرب من الدخول فيه، وإذا دخل فيه واستأنس بأهله جره ذلك إلى الزور[412]، وختم كلامه بأنّ الحازم هو الذي لا يسامح نفسه في القليل من أسباب الشر، ويبتعد كل البعد عنها وعن أهلها[413].

وابن باديس حاول من خلال هذه الآية أن ينبّه الناس إلى خطر الخوض في اللغو الحرام والجلوس مع أهله؛ لأنّ الذي يعوّد نفسه على مجالس اللغو ربما يتدرّج في الحرام، فالشيطان له خطوات، والخطوة

---

409. ابن بطال. أبو الحسن علي بن خلف. 2003. *شرح صحيح البخاري لابن بطال*. الرياض: مكتبة الرشد. ط.2. ج.6. ص. 201.

410. القرآن. الفرقان 25: 72.

411. قال البيهقي: "اللغو الباطل الذي لا يتصل بقيد صحيح، ولا يكون لقائله فيه فائدة، وربما يكون وبالا عليه، ثم ينقسم فيكون منه: أن يتكلم الرجل بما لا يعنيه من أمور الناس فيفشي سرائرهم، ويهتك أستارهم، ويذكر أمواهم وأحوالهم من غير حاجة به إلى شيء من ذلك عادة سوء ألفها، فلا يريد النزوح عنها، ويكون منه الخوض فيما لا يحل من ذكر الفجار والفجور والملاهي" البيهقي. أحمد بن الحسين بن علي. 2003. *شعب الإيمان*. الرياض: مكتبة الرشد للنشر والتوزيع. ج.13. ص.267.

412. يؤيد كلامه هذا حديث رسول الله ﷺ: "الحَلاَلُ بَيِّنٌ، وَالحَرَامُ بَيِّنٌ، وَبَيْنَهُمَا مُشَبَّهَاتٌ لاَ يَعْلَمُهَا كَثِيرٌ مِنَ النَّاسِ، فَمَنِ اتَّقَى المُشَبَّهَاتِ اسْتَبْرَأَ لِدِينِهِ وَعِرْضِهِ، وَمَنْ وَقَعَ فِي الشُّبُهَاتِ: كَرَاعٍ يَرْعَى حَوْلَ الحِمَى، يُوشِكُ أَنْ يُوَاقِعَهُ، أَلاَ وَإِنَّ لِكُلِّ مَلِكٍ حِمًى، أَلاَ إِنَّ حِمَى اللَّهِ فِي أَرْضِهِ مَحَارِمُهُ،..." سبق تخريجه.

413. ابن باديس. 1995م. *تفسير ابن باديس*. ص. 232-233.

الأولى تبدأ بأصغر الأمور، ثم تنتهي بالكبائر، ونحن بحاجة إلى هذا التنزيل وتذكير الناس به؛ فكثير من الناس في مجتمعاتنا يقضون أوقاتهم فيما لا فائدة فيه، والنفس إن لم تشغلها بالحق شغلتك بالباطل، والمؤمن وقته عزيز، ويجب عليه أن يعمره في طاعة الله ﷻ.

المطلب السادس: ترك الأثر السّيئ

خلّد التاريخ ذكر أناس كانوا مصابيح يستضيء بها الناس في ظلمتهم، أنعم الله عليهم بالإسلام، فراعهم حال أمتهم فوضعوا بصمتهم، وتركوا أطيب الأثر، فسار من بعدهم على خطاهم، فكان لهم مثل أجرهم، تصديقًا لقول النبي ﷺ «مَنْ سَنَّ فِي الْإِسْلَامِ سُنَّةً حَسَنَةً، فَعُمِلَ بِهَا بَعْدَهُ، كُتِبَ لَهُ مِثْلُ أَجْرِ مَنْ عَمِلَ بِهَا، وَلَا يَنْقُصُ مِنْ أُجُورِهِمْ شَيْءٌ، وَمَنْ سَنَّ فِي الْإِسْلَامِ سُنَّةً سَيِّئَةً، فَعُمِلَ بِهَا بَعْدَهُ، كُتِبَ عَلَيْهِ مِثْلُ وِزْرِ مَنْ عَمِلَ بِهَا، وَلَا يَنْقُصُ مِنْ أَوْزَارِهِمْ شَيْءٌ»[414]، فكانوا قدوة حسنة لغيرهم حتى بعد موتهم، وعلى العكس من ذلك، فهناك من يزين السوء، وقد يُحدث أثره خرابًا أو دمارًا في المجتمع، فيبقى أثره وزرًا عليه، فالله ﷻ يكتب ما قدمه العبد من أثر، قال سبحانه: ﴿وَنَكْتُبُ مَا قَدَّمُوا۟ وَءَاثَـٰرَهُمْ﴾[415]، وقد تدبر ابن باديس هذه الآية العظيمة، فوعظ بها الناس، وربطها بواقعهم، وخاطب كل إنسان عاقل – بعد علمه أنه محاسب على ما قدم من قول وعمل– ألّا يقول قولًا أو يعمل عملًا حتى ينظر في عاقبته، فقد تكون عاقبته أضرّ عليه من نفس القول أو الفعل؛ لأنه قد يقول القول مرة واحدة، ويفعل الفعل مرة واحدة، ثم يقتدي به كثير من الناس في أزمنة متطاولة[416].

وقد يقع في ذلك كثير من الناس، فيبتدع بدعة، أو يدعو إلى ضلالة، فيمتد أثرها من بعده، فيحمل

---

414. مسلم. د. ت. *صحيح مسلم*. كتاب العلم. باب من سن سنة حسنة أو سيئة ومن دعا إلى هدى أو ضلالة. ج.4. ص. 2059. حديث رقم: 1017.

415. القرآن. يس 36: 12.

416. ابن باديس. 1995م. *تفسير ابن باديس*. ص. 308.

وزرها، ووزر من عمل بها، تصديقًا لقول الله ﷻ: ﴿لِيَحۡمِلُوٓاْ أَوۡزَارَهُمۡ كَامِلَةٗ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ وَمِنۡ أَوۡزَارِ ٱلَّذِينَ يُضِلُّونَهُم بِغَيۡرِ عِلۡمٍۗ أَلَا سَآءَ مَا يَزِرُونَ ٢٥﴾[417].

وهذا تفطّن عملي بديع؛ فإنّ الأثر السيئ يبقى ويسهل انتشاره، خاصة في عصرنا الحالي مع تطوّر وسائل التواصل الاجتماعي، التي يتم من خلالها تزيين الشهوات، ونشر الشبهات، والترويج للمحرمات، فيموت صاحب هذا الأثر، ويبقى أثره وزرًا عليه إلى قيام الساعة، قال تعالى: ﴿وَلَيَحۡمِلُنَّ أَثۡقَالَهُمۡ وَأَثۡقَالٗا مَّعَ أَثۡقَالِهِمۡۖ وَلَيُسۡـَٔلُنَّ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ عَمَّا كَانُواْ يَفۡتَرُونَ ١٣﴾[418].

وترك الأثر السيئ وانتشاره في المجتمع من أكثر ما يُعيق وظيفة المصلحين، ويتطلّب منهم بذل مزيد من الجهود في دعوتهم، والتشاور في إيجاد حلول تقلّل من تلك الآثار السيئة، وإزالة العقبات بصبر ورسوخ وثبات، والاستمرار بدعوة الناس بالحكمة والموعظة الحسنة، وعدم اليأس والقنوط من انتشار الباطل وأهله.

المطلب السابع: التوبة

خلق الله ﷻ الإنسان وجعله ضعيفًا، يضعف أمام الشهوات أحيانًا، ويقع في المعاصي أحيانًا أخرى، وبهذا الضعف يُدرك المرء أنه مفتقر إلى الله ﷻ، فيتعامل مع تقصيره بالإقبال على الله، والاعتراف بالخطأ، والمسارعة بالتوبة والإنابة. وقد دعانا الله ﷻ إلى التوبة والإنابة في كثير من الآيات، وامتدح عباده التائبين الذين يرجعون إليه عند كل تقصير، قال سبحانه: ﴿وَمَن تَابَ وَعَمِلَ صَٰلِحٗا فَإِنَّهُۥ يَتُوبُ إِلَى ٱللَّهِ مَتَابٗا ٧١﴾[419]، ولأنّ ابن باديس كان همه إصلاح مجتمعه بمعالجة أمراضه من خلال القرآن، بيّن لهم أنّ

---

[417]. القرآن. النحل 16: 25.

[418]. القرآن. العنكبوت 29: 13.

[419]. القرآن. الفرقان 25: 71.

الله دعاهم بهذه الآية إلى التوبة ورغّبهم فيها؛ حتى لا يتسرب اليأس والقنوط إلى قلوبهم، وحتى لا يحول بينهم وبين خالقهم ذنب وإن كان عظيمًا. ثم ذكّرهم بأنّ الرجوع إلى الله فيه من الخير والشرف العظيم، وذكّرهم بحلم الله ﷻ ورحمته بعباده المذنبين، فقال لهم: "فهذا داعي الله فأجيبوه، وهذا باب الله فلِجوه؛ فإنكم مهما رجعتم إليه لا تُطرَدوا، ومهما قصدتم إليه تُقبَلوا وتُكرَموا"[420].

ودعاهم إلى التوبة كذلك عند قول الله ﷻ: ﴿وَٱلَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا ٱصۡرِفۡ عَنَّا عَذَابَ جَهَنَّمَۖ إِنَّ عَذَابَهَا كَانَ غَرَامًا ۝٦٥ إِنَّهَا سَآءَتۡ مُسۡتَقَرّٗا وَمُقَامٗا ۝٦٦﴾[421]، مبينًا لهم أنّ العاقل يجب عليه أن يحسن مقرّه ومقامه، ويجتنب كل موطن تلحقه فيه الملامة، وأن يجتنب مجالس السوء والبدعة، ويحافظ على مجالس الطاعة والسنة، ولا يُصرّ على شيء من الذنوب، وأن يسارع بالتوبة والإنابة والإقبال على الله ﷻ[422].

وهذا التنزيل للآية فيه إشارة إلى النظر في أحوال واقعه، ويُلمح إلى شيء مما كان في عصره من تسرّب اليأس والقنوط إلى بعض الناس؛ نتيجة الأوضاع الصعبة التي عاشتها الجزائر في ظل الاستعمار الفرنسي، وتنزيله هذا يدل على اهتمامه ﷺ بالتوبة والرجوع إلى الله؛ لأنها جماع الخير، وهي من أعظم العبادات وأحبها إلى الله، وهي سبب للفوز والفلاح في الدنيا والآخرة، وفي المقابل فإنّ الذنوب والمعاصي لها عواقب وخيمة، وآثار رذيلة على الفرد والمجتمع.

خلاصة المبحث:

1- بيان ابن باديس لأهمية آيات القرآن في جانب الأخلاق، وأثرها في واقع المسلمين.

2- فقه ابن باديس ومعرفته بقضايا عصره، وربطها بآيات القرآن.

---

420. ابن باديس. 1995م. *تفسير ابن باديس*. ص. 229.

421. القرآن. الفرقان 25: 65- 66.

422. ابن باديس. 1995م. *تفسير ابن باديس*. ص. 202.

3- أهم ما نزّل ابن باديس الآيات عليه في جانب الأخلاق هو بر الوالدين، والتواضع، والحلم، والصبر، والتحذير من الجدال والخيانة والعجب.

UNIVERSITI SAINS ISLAM MALAYSIA
جامعة العلوم الإسلامية الماليزية
ISLAMIC SCIENCE UNIVERSITY OF MALAYSIA

المبحث السابع

تنزيل الآيات على الواقع في القضايا الاجتماعية

تمهيد:

وضع الله ﷻ في كتابه الكريم أُسسًا عديدة تحتوي على ضوابط اجتماعية تُسهم في بناء مجتمع سليم تربطه علاقات اجتماعية عادلة، وأمرهم بتطبيق ما جاء فيه من أسس؛ ليصنعوا مجتمعًا إسلاميًا فريدًا، يتحقق فيه الترابط الاجتماعي القويم، والذي يكون سببًا في تحقق الخلافة في الأرض، والقيام بالغاية التي خلق الله الناس لأجلها.

ولأهمية هذا الجانب في حياة الفرد والمجتمع فإنّ ابن باديس عمل على توفير البيئة الاجتماعية الصالحة؛ عن طريق بث الأخلاق الحميدة في الفرد المسلم، بالرجوع إلى القرآن الكريم لحل مشاكل المجتمع الإسلامي المعاصر[423]. وكانت الخطوة الأولى التي خطاها في تغيير مجتمعه أن سلّط الضوء على الآيات التي وجد فيها حلًا لمشاكل المجتمع، واستنبط منها أصول النظام الاجتماعي، ونزلها على واقعه، وسأذكرها في هذا المبحث وفقًا للمطالب التالية:

المطلب الأول: الشعور بالانتماء

يعدّ الشعور بالانتماء للمجتمع من أهم ركائزه التي تحافظ على استقراره الاجتماعي، وقد ذكر لنا الله ﷻ في كتابه قصة النملة مع نبي الله سليمان عليه السلام وجنوده، تلك القصة التي تعلمنا دروسًا في الانتماء الاجتماعي، قال تعالى: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَآ أَتَوۡاْ عَلَىٰ وَادِ ٱلنَّمۡلِ قَالَتۡ نَمۡلَةٞ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّمۡلُ ٱدۡخُلُواْ مَسَٰكِنَكُمۡ

---

[423]. سالم. 1999م. *ابن باديس فارس الإصلاح والتنوير*. ص.115.

لَا يَحۡطِمَنَّكُمۡ سُلَيۡمَٰنُ وَجُنُودُهُۥ وَهُمۡ لَا يَشۡعُرُونَ ﴿١٨﴾[424] وقد علّق ابن باديس على قصة النملة مع سليمان عليه السلام وجنوده، تلك النملة التي أبهره موقفها فهي لم تهتم بنفسها فقط، ولم تحاول أن تنجو بمفردها، ولم ينسها هول الموقف وعظمة الجند أن تنذر بني جنسها؛ فقد أدركت بفطرتها أنه لا نجاة لها إذا لم تنجُ معهم، ولا حياة لها بدونهم، فلم تُنسها الخشية على نفسها وعلى بني جنسها من الخطر الباغت؛ بل أنذرتهم في أشد ساعات الخطر.

ثم رأى ابن باديس مناسبة تنزيلها على الواقع فقال: "فهذا يعلمنا أن لا حياة للشخص إلّا بحياة قومه، ولا نجاة له إلّا بنجاتهم، وأن لا خير لهم فيه إلّا إذا شعر بأنه جزء منهم، ومظهر هذا الشعور أن يحرص على خيرهم كما يحرص على نفسه، وألّا يكون اهتمامه بها دون اهتمامه بهم"[425].

وهذا التنزيل الكلي للآية يدلّ على الشعور بالأخوّة بين المؤمنين، وأنهم أمة واحدة، كما قال سبحانه: ﴿إِنَّمَا ٱلۡمُؤۡمِنُونَ إِخۡوَةٞ﴾[426]، كما يدلّ على عمق الإحساس بالمسؤولية، والعمل بإخلاص مع أبناء المجتمع، واستشعار أنّ كل فرد في المجتمع هو عضو فيه، بقاؤه ببقائهم، وزواله بزوالهم.

وكأنّ ابن باديس ينادي بوحدة الصف؛ لأنّ الشعوب لا تُهزم إلا إذا كانت الخيانة من الداخل، وانشقّ الصف، ولعلّه بهذا التنزيل كان يرمي إلى تكوين جيل متماسك متأهّب لمواجهة الاستعمار، والتحرر منه، فقد كان يسعى إلى تأسيس مجتمع يتمتّع بحقه بالحرية ويعيش حياة كريمة.

المطلب الثاني: العمل بروح الفريق

اعتبر ابن باديس وحدة المجتمع هي العامل الأساسي في تحصيل القدرة على بناء الحضارة للأمة أو

---

[424]. القرآن. النمل 27: 18.

[425]. ابن باديس. 1995م. *تفسير ابن باديس*. ص. 262- 263.

[426]. القرآن. الحجرات 49: 10.

المجتمع، وتمكينه من الوقوف في وجه محاولات التبديد[427]، وكان يقول: "علينا أن نعتقد بقلوبنا أنّ الاتحاد واجب، أكيد، محتم علينا مع جميع المؤمنين، وأنّ فيه قوتنا وحياتنا، وفي تركه ضعفنا وموتنا"[428].

ولما ذكر تفسير قول الله ﷻ: ﴿وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ ٱلْقُرَىٰٓ ءَامَنُوا۟ وَٱتَّقَوْا۟ لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَٰتٍ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ وَلَٰكِن كَذَّبُوا۟ فَأَخَذْنَٰهُم بِمَا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ ﴿٩٦﴾﴾[429] نزلها على واقعه قائلًا: "فالإيمان والتقوى هما العلاج الوحيد لنا من حالتنا لأننا إذا التزمناهما نكون قد أقلعنا عن أسباب العذاب"[430] وأرشدهم إلى أهمية القيام بذلك متعاونين أفرادًا وجماعات، وأن يجعل كل واحد ذلك نصب عينيه، ويبدأ به في نفسه، ثم بمن يليه من عشيرته وقومه، ثم جميع أهل ملته، وعلى كل مسلم أن يستشعر أخوّة الإيمان التي تجعل المسلمين كجسد واحد[431].

وهذا التنزيل صريح أشار فيه إلى الحالة الصعبة التي كان يعيشها الشعب الجزائري في تلك الفترة، ولا سبيل إلى الخلاص منها إلا بما جاء في الآية الكريمة، ولا سبيل إلى تحقيقه إلا بالتعاون والتكاتف، كما قال تعالى: ﴿وَتَعَاوَنُوا۟ عَلَى ٱلْبِرِّ وَٱلتَّقْوَىٰ﴾[432]، وما تمرّ به الأمة الإسلامية اليوم من ضعف وذلّ يحتاج إلى تعاون ومشاركة بينهم، ووحدة لصفّهم، امتثالًا لقول الله ﷻ: ﴿وَلَا تَنَٰزَعُوا۟ فَتَفْشَلُوا۟ وَتَذْهَبَ

---

427. فلوسي. مسعود بن موسى. 2006م. *الإمام عبد الحميد بن باديس لمحات من حياته وأعماله وجوانب من فكره وجهاده*. الجزائر: دار قرطبة للنشر والتوزيع. ص.120.

428. ابن باديس. عبد الحميد محمد. 1983م. *مجالس التذكير من حديث البشير النذير*. تونس: مطبوعات وزارة الشؤون الدينية. ص.100.

429. القرآن. الأعراف 7: 96.

430. ابن باديس. 1995م. *تفسير ابن باديس*. ص.126.

431. المرجع نفسه. ص.126.

432. القرآن. المائدة 5: 2.

﴿يُحۡكُمُۖ﴾[433].

وعند تفسيره لقول الله ﷻ: ﴿إِنَّمَا ٱلۡمُؤۡمِنُونَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَإِذَا كَانُواْ مَعَهُۥ عَلَىٰٓ أَمۡرٖ جَامِعٖ لَّمۡ يَذۡهَبُواْ حَتَّىٰ يَسۡتَـٔۡذِنُوهُۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَسۡتَـٔۡذِنُونَكَ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ يُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦۚ فَإِذَا ٱسۡتَـٔۡذَنُوكَ لِبَعۡضِ شَأۡنِهِمۡ فَأۡذَن لِّمَن شِئۡتَ مِنۡهُمۡ وَٱسۡتَغۡفِرۡ لَهُمُ ٱللَّهَۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٞ رَّحِيمٞ ٦٢﴾[434] أشار إلى أهمية الاجتماع ومناقشة مصالح المسلمين فقال: "إنما ينهض المسلمون بمقتضيات إيمانهم بالله ورسوله إذا كانت لهم قوة، وإنما تكون لهم قوة إذا كان لهم جماعة منظّمة، تفكّر، وتدبّر، وتتشاور، وتتآزر، وتنهض لجلب المصلحة ولدفع المضرة، متساندة في العمل عن فكر وعزيمة؛ ولهذا قرن الله في هذه الآية بين الإيمان بالله ورسوله، والحديث عن الجماعة وما يتعلق بالاجتماع، فيرشدنا هذا إلى خطر أمر الاجتماع ونظامه، ولزوم الحرص والمحافظة عليه، كأصل لازم للقيام بمقتضيات الإيمان وحفظ عمود الإسلام"[435].

وكان ابن باديس يسعى سعيًا حثيثًا لترسيخ مبدأ العمل الجماعي، ويرى أنّ الجماعة المنظمة التي تفكر وتتشاور وتتآزر هي سبب النهضة وقيادة المجتمع، وكان لسعيه المبارك عظيم الأثر؛ فحرّك الهمم، وأيقظ الأصوات؛ لأنه سعي مستمد من كتاب الله ﷻ، الذي هو الأساس لكل نهضة تتوق لها الأمة الإسلامية.

ورأى ابن باديس أنّ من يريد النجاة من المهالك والفوز بأعلى المراتب، فعليه أن ينضم إلى القافلة

---

[433]. القرآن. الأنفال 8: 46.

[434]. القرآن. النور 24: 62.

[435]. ابن باديس. 1995م. *تفسير ابن باديس*. ص.335.

الربانية، ويعدّ نفسه جزءًا منها لا سلامة له إلّا بسلامتها؛ يتعاون مع أفرادها، ويحب لكل واحد منها ما يحب لنفسه، ويكره له ما يكره لها، ثم أمر بالطاعة المطلقة لهم فقال: "وأن يطيع أولئك الأدلة، ويقتفي آثارهم، وينزل بنزولهم، ويرتحل بارتحالهم، وأن يرجع في معرفة وجوه السير وأصنافه وأوقاته ومنازله إليهم، دون أدنى اعتراض ولا مخالفة"[436].

وقوله هذا فيه نظر؛ لأنّ الطاعة المطلقة لا تكون إلا لله ﷻ ولرسوله ﷺ، ولا ينكر أحد أنّ للعلماء مكانة رفيعة في شريعتنا الإسلامية؛ لأنهم أدلّاء للناس على دين الله، وأنّ طاعتهم واجبة؛ كما جاء في قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ وَأُوْلِي ٱلۡأَمۡرِ مِنكُمۡۖ﴾[437]، لكن هذه المكانة لا تعني التقديس لهم؛ لأنهم غير معصومين من الخطأ، فالواجب علينا طاعتهم في طاعة الله، ومخالفتهم في غير ذلك.

المطلب الثالث: اختيار الزوجة الصالحة

أَولى الإسلام عناية خاصة للأسرة؛ لأنها تشكّل اللبنة الأولى في إصلاح المجتمع، وقد رأى ابن باديس أنّ للمرأة المتعلمة دورًا كبيرًا في تربية جيل متمسك بعقيدته الإسلامية، ويجاهد في سبيلها، فقال: "البيت هو المدرسة الأولى والمصنع الأصلي لتكوين الرجال، وتديّن الأم هو أساس حفظ الدين والخلق، والضعف الذي نجده من ناحيتهما في رجالنا معظمه نشأ من عدم التربية الإسلامية في البيوت بسبب جهل الأمهات وقلة تدينهن"[438].

وقد اهتم الإسلام بمرحلة ما قبل التأسيس، فبيّن لنا أسس اختيار الزوجة الصالحة؛ وذكر لنا أنّ من

---

436. المرجع السابق: ص. 290.

437. القرآن. النساء 4: 59.

438. طالبي.1968. *آثار ابن باديس*. ج.4. ص.201.

صفات عباد الرحمن أنهم يدعون الله ﷻ أن يهبهم أزواجًا وذرية تقرّ بها أعينهم، يسيرون على منهجهم، ويتصفون بصفاتهم، وذلك في قوله ﷻ: ﴿وَٱلَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا هَبۡ لَنَا مِنۡ أَزۡوَٰجِنَا وَذُرِّيَّٰتِنَا قُرَّةَ أَعۡيُنٖ وَٱجۡعَلۡنَا لِلۡمُتَّقِينَ إِمَامًا ٧٤﴾[439]، ومن هذه الآية استنبط ابن باديس ﷺ أنّ "سؤال العبد ربه أن يهب له من الزوج والذرية ما تقر به عينه، يقتضي سعيه بقدر استطاعته لتحصيل ذلك فيهما، ليقوم بالسببَين المشروعَين من السعي والدعاء، فعليه أن يختار ويجتهد عندما يريد التزوج، وأن يقصد إلى ذات الدين"[440]، ثم أراد أن ينبّه على أنّ اختيار الزوجة الصالحة هو سعي في اختيار الولد؛ لأنّ الزوجة الصالحة شأنها أن تقوم بتربية أولادها على الخير والصلاح[441].

وهذا التنزيل الجزئي للآية من الأهمية بمكان؛ لأنّ دعاء الله ﷻ سبب، والسعي للبحث عن الزوجة الصالحة سبب، والجمع بين السببين أولى وأفضل، لكن قد يتحقق المقصود بأحد السببين.

المطلب الرابع: الصحبة الصالحة

لا شك أنّ الصحبة الصالحة تكون سببًا في إنشاء جيل صالح في دينه وخلقه، وبالمقابل فإنّ الصحبة السيئة ينتج عنها جيل غير صالح، يؤثّر فساده على أسرته وبالتالي على مجتمعه.

والصحبة الطيبة طريق إلى تحقيق الألفة والمحبة بين أفراد المجتمع المسلم، ولذا فإنّ القرآن حذّرنا من الصحبة السيئة؛ لما لها من أثر سيئ في الدنيا والآخرة، قال سبحانه: ﴿وَيَوۡمَ يَعَضُّ ٱلظَّالِمُ عَلَىٰ يَدَيۡهِ يَقُولُ يَٰلَيۡتَنِي ٱتَّخَذۡتُ مَعَ ٱلرَّسُولِ سَبِيلٗا ٢٧ يَٰوَيۡلَتَىٰ لَيۡتَنِي لَمۡ أَتَّخِذۡ فُلَانًا خَلِيلٗا ٢٨ لَّقَدۡ أَضَلَّنِي

---

439. القرآن. الفرقان 25: 74.

440. ابن باديس. 1995م. *تفسير ابن باديس*. ص. 238.

441. المرجع نفسه. ص.238.

عَنِ ٱلذِّكۡرِ بَعۡدَ إِذۡ جَآءَنِيۗ وَكَانَ ٱلشَّيۡطَٰنُ لِلۡإِنسَٰنِ خَذُولٗا ﴿٢٩﴾[442] وفي معرض كلام ابن باديس عن هذه الآية ذكر علامة للصحبة الصالحة، وعلامة للصحبة الفاسدة: فإذا كان من نصاحبه يرغّبنا في القرآن وما جاء به فهو خليل صادق نتمسك به، أما إذا كان يرغّبنا عن القرآن، وما جاء به فتلك علامة على فساده وسوء عاقبة قربه، ويجب علينا أن نبتعد عنه في الدنيا، قبل أن نعضّ على يدينا في الآخرة[443].

وعلى الرغم من أنّ تنزيله للآية كان موجزًا، إلا أنه ذكر فيه علامة الصديق الصالح، وعلامة الصديق الفاسد، وموقفنا منه، والسبب في ذلك؛ لأنّ الصحبة إما أن تكون مفتاحًا للخير، أو مفتاحًا للشر، وقد قال النَّبِيّ ﷺ: "مَثَلُ الجَلِيسِ الصَّالِحِ وَالسَّوْءِ، كَحَامِلِ المِسْكِ وَنَافِخِ الكِيرِ، فَحَامِلُ المِسْكِ: إِمَّا أَنْ يُحْذِيَكَ، وَإِمَّا أَنْ تَبْتَاعَ مِنْهُ، وَإِمَّا أَنْ تَجِدَ مِنْهُ رِيحًا طَيِّبَةً، وَنَافِخُ الكِيرِ: إِمَّا أَنْ يُحْرِقَ ثِيَابَكَ، وَإِمَّا أَنْ تَجِدَ رِيحًا خَبِيثَةً"[444].

المطلب الخامس: قوة الجسد

إنّ المجتمعات التي تهتم بصحة أفرادها، هي المجتمعات التي تتميز بكثرة الإنتاج؛ لأنّ قوة الشخص تكمن في صحته، وقد جاء في الحديث الصحيح: «الْمُؤْمِنُ الْقَوِيُّ، خَيْرٌ وَأَحَبُّ إِلَى اللهِ مِنَ الْمُؤْمِنِ الضَّعِيفِ، وَفِي كُلٍّ خَيْرٌ»[445]، وقد اهتم ابن باديس بالتربية البدنية؛ كالرياضة والوجبات الغذائية؛ لما لها من

---

[442]. القرآن. الفرقان 27:25-29.

[443]. ابن باديس. 1995م. *تفسير ابن باديس*. ص. 172.

[444]. البخاري. 1422هـ. *صحيح البخاري*. كتاب الذبائح والصيد. باب المسك. ج.7. ص.96. رقم الحديث: 5534. ومسلم. د. ت. *صحيح مسلم*. كتاب البر والصلة والآداب. باب استحباب مجالسة الصالحين، ومجانبة قرناء السوء. ج.4. ص.2026. رقم الحديث: 2628.

[445]. مسلم. د. ت. *صحيح مسلم*. كتاب القدر. باب في الأمر بالقوة وترك العجز والاستعانة بالله وتفويض المقادير لله. ج.4: 2052. رقم الحديث: 2664.

دور كبير في سلامة الأبدان وصحتها[446]، وحثّ شعبه على الاهتمام بذلك فقال: "حافظ على صحتك فهي أساس سعادتك وشرط قيامك بالأعمال النافعة لنفسك ولغيرك"[447] ولم يكن ذلك مجرد شعار؛ بل تحدّث عنه في معرض تفسيره لقول الله ﷻ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلرُّسُلُ كُلُواْ مِنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَٱعۡمَلُواْ صَٰلِحًاۖ إِنِّي بِمَا تَعۡمَلُونَ عَلِيمٞ ٥١﴾[448]، وذكر أنّ الأعمال تتوقف على سلامة الأبدان، ولهذا فإنّ المحافظة على الأبدان من الواجبات، وأشار إلى أنّ الله ﷻ قدّم في الآية الكريمة الأمر بالأكل على الأمر بالعمل[449]، ثم نبّه على أنّ تحريم الطيبات التي أحلها الله ليس من الإسلام، كتحريم غلاة المتصوفة اللحم، وليس من الإسلام كذلك تضعيف الأبدان وتعذيبها[450].

وفي تنزيله السابق للآية الكريمة تربية وتثقيف للمجتمع بما ينمّي قواهم الجسدية، وأنّ ذلك نابع من أصول دينهم، ونحن بحاجة إلى تربية النشء تربية متكاملة، عقلًا وجسمًا؛ ليكون مواطنًا صالحًا، سليم الجسم والعقل.

وفيه ردّ على طرائق الصوفية التي انتشرت في عصره، فكان له دور كبير في القضاء على خرافاتهم، وتصحيح مسارهم؛ ليقينه التام بأنّ محاربة الجهل عامل أساسي في بناء مجتمع إسلامي سليم.

المطلب السادس: الإسراف

---

446. الصالح. منى محمد. 2017م. *منهج الإمام عبد الحميد بن باديس في التربية والتعليم*. (رسالة ماجستير). الجزائر: جامعة الشهيد حمة لخضر. ص.42.

447. طالبي. 1968. *آثار ابن باديس*. ج.3. ص. 177.

448. القرآن. المؤمنون 23: 51.

449. وافقه في هذا التنزيل ابن كثير، والفخر الرازي، انظر: ابن كثير. 1999. تفسير القرآن العظيم. ج.5. ص.477. الرازي. 1420. *مفاتيح الغيب*. ج.23. ص.281.

450. ابن باديس. 1995م. *تفسير ابن باديس*. ص.355.

تبيّن مما سبق كيف كان بعض الصوفية يحرّمون طيبات ما أحل الله لهم، ويضيّقون على أنفسهم بأمور لم تكن من ديننا الإسلامي، وعلى العكس من ذلك لاحظ ابن باديس وجود فئة من المجتمع عُرف عنها الإسراف والتبذير خاصةً في الولائم والمآتم والمناسبات، التي كانت تُقام تقديسًا لشيوخ الصوفية، ويكون فيها من البذخ والإسراف الذي يؤدي إلى التقتير من بعدها، ووصف ذلك الواقع بأنّ بعض المأمورين من شيوخ الطوائف، يأتون بطائفة من أتباعهم، فيحِلّون ضيوفًا على المنتمين إليهم من بسطاء الناس، فيذبحون لهم العناق، ويستدينون لشرائها إن لم تتوفر لديهم، ويعطونهم كل ما في البيت، ويُصبح صاحب البيت مُعدمًا فقيرًا مَدينًا، ويصبح جميع أهل البيت في فقر شديد، وكل ذلك يُرتكب باسم الدين، ويظنه الجهال أنه قربة لرب العالمين.

ثم ذكر نوعًا من السرف مشابهًا لما سبق؛ وهو تقديم النذور عند زيارات القبور، التي يحدث عندها أنواع السرف، والتضييع للحقوق والواجبات، فأراد معالجة هذه الظاهرة الاجتماعية التي انتشرت في مجتمعه، من خلال تفسيره لقول الله ﷻ: ﴿وَٱلَّذِينَ إِذَآ أَنفَقُواْ لَمۡ يُسۡرِفُواْ وَلَمۡ يَقۡتُرُواْ وَكَانَ بَيۡنَ ذَٰلِكَ قَوَامٗا ٦٧﴾[451] فوجّه نصيحة لأولئك الشيوخ قائلًا لهم: "فيا ليت الذين تأتيهم تلك الوفود ويسألونهم فردًا فردًا عن حالهم، ومن أين بما جاؤوهم به من أموالهم؛ فعساهم أن يطّلعوا على بؤس أولئك المساكين فترقّ لهم قلوبهم، ويُرجعوا إليهم مالهم أو يزيدوهم من عندهم، وليقتصروا على من يجدونهم أهل قدرة على ما دفعوه لهم من أموالهم، فهذه نصيحة إذا عملوا بها خففت من الشر والبؤس عن الزائرين، ومن الإثم واللوم عن المزورِين"[452].

وهذا تنزيل صريح؛ فقد صرّح بما يقع في مجتمعه، وهو تنزيل صحيح لموافقته ضوابط التنزيل، يدلّ

---

[451]. القرآن. الفرقان 25: 67.

[452]. ابن باديس. 1995م. *تفسير ابن باديس*. ص.218.

على فقه ابن باديس بالواقع الذي يدور من حوله، ومحاولة إصلاحه، لأنّ الإسراف قد يصبح ظاهرة عامة تجتاح المجتمع كله إذا لم يكن هناك من يعالج هذه الظاهرة، وديننا الإسلامي الحنيف أمرنا بالقصد في الأمور كلها ونهانا عن الإسراف؛ لأنه قد يكون سببًا في العقوبة وزوال الأموال، وهو سبب لتدهور المجتمع واستنزاف موارده، فهو يؤدي إلى إهلاك الحرث والنسل، وإلى الترف الذي يدفع الناس إلى الرذيلة.

وابن باديس كان له أسلوب بديع في هذا تنزيل الآية؛ حيث ضرب مثالًا واقعيًا من المجتمع، ووصف الأحداث مفصّلة، حتى يتم فهم معنى الإسراف، وما فيه من ضياع للمال دون جدوى، بأسلوب مؤثر خاطب فيه الوجدان، وهدف في كل ذلك تقويم أخلاق المجتمع.

خلاصة المبحث:

1- بيان ابن باديس إلى ما وصل إليه حال المسلمين في تلك الفترة من حالة صعبة، وأنّ النجاة منها لا يكون إلّا بالرجوع إلى القرآن، والعمل بما جاء فيه.

2- ردّ ابن باديس على غلاة الصوفية -الذي كان لها انتشار واسع في عصره- ومحاربته لخرافاتهم من خلال آيات القرآن.

3- تنزيل ابن باديس للآيات في القضايا الاجتماعية كان متنوعًا لجوانب متعددة في المجتمع، وهذا يدلّ على انخراطه في مجتمعه ومعرفته بقضاياهم، ومحاولة إصلاحها بالرجوع إلى القرآن.

4- استخدام ابن باديس للتنزيل الصريح كان الغالب على القضايا الاجتماعية.

المبحث الثامن

تنزيل الآيات على الواقع في القضايا السياسية

تمهيد:

وضع القرآن أسسًا سياسية رغم أنّ كلمة السياسة لم ترد بلفظها في القرآن الكريم بل ورد مضمونها ضمن الآيات القرآنية التي نزلت لتشكل نظامًا سياسيًا إسلاميًا يحقق حياة إنسانية كريمة[453]، والدولة في النظام الإسلامي تتميز بإقامة شرائع الإسلام، تستنبط أحكامها من القرآن والسنة، وتصوغ منهما دستورها، وتعمل على سياسة الناس بهما.

ولم يكن اهتمام ابن باديس في تنزيل الآيات على الواقع من الناحية العلمية والأخلاقية فقط؛ بل سعى إلى الانتفاع بآيات القرآن في كل المجالات، ومن ذلك المجال السياسي؛ واستفاد من قصَّة نبي الله سليمان الذي آتاه الله الملك، فكان مثالًا للمَلِك العادل، ونزّل تلك الفوائد على واقعه؛ ليعيش الناس في ظل القرآن، يستمدون منه أحكامهم، ويطبقونها في واقعهم، وسيتناول هذا المبحث تلك الفوائد، ولن يكون مقيّدًا بترتيب الآيات كما ورد في السورة؛ فقد يقع التقديم والتأخير بحسب العناوين.

المطلب الأول: العدل أساس الملك

عاش ابن باديس في عصر ظلم واستبداد الاستعمار الفرنسي، الذي مارس كل أنواع الظلم على الشعب الجزائري[454]، وكان هذا الظلم يمثل له هاجسًا في ظل تلك الظروف، ولم يقف مكتوف اليدين أمام

---

453. القرضاوي. يوسف. 2007. *الدين والسياسة تأصيل وردّ شبهات*. دبلن: المجلس الأوروبي للإفتاء والبحوث. ص. 19- 20.

454. راجع تعريف عصر ابن باديس من ص.29 إلى ص.40.

ذلك الواقع؛ بل كان له نشاط سياسي واسع النطاق[455]، واستمد العون من الله ﷻ في مقاومة هذا الظلم، واتخذ في ذلك أساليب متنوعة؛ من أهمها الرجوع إلى القرآن، وتدبره والعمل به، وكان يرى أنّ السبب في تسلّط الأعداء على بلاده: هو عدم تمسكهم بالدين الإسلامي، وتفشّي الظلم بينهم، وذكر ذلك عند تفسيره لقول الله ﷻ: ﴿وَإِن مِّن قَرْيَةٍ إِلَّا نَحْنُ مُهْلِكُوهَا قَبْلَ يَوْمِ ٱلْقِيَـٰمَةِ أَوْ مُعَذِّبُوهَا عَذَابًا شَدِيدًا ۚ كَانَ ذَٰلِكَ فِى ٱلْكِتَـٰبِ مَسْطُورًا ﴿٥٨﴾﴾[456] ويشير في تفسيرها إلى أنّ هلاك الأمم "يكون بعد إسباغ النعمة وإقامة الحجة عليهم، وتمكّن الفساد فيهم وتكاثر الظلم منهم"[457]، ثم بين أنّ العلاج الوحيد للنجاة من العذاب هو الإيمان والتقوى عند التمسك بهما[458].

وعند تفسيره لقول الله ﷻ: ﴿لَأُعَذِّبَنَّهُۥ عَذَابًا شَدِيدًا أَوْ لَأَا۟ذْبَحَنَّهُۥٓ أَوْ لَيَأْتِيَنِّى بِسُلْطَـٰنٍ مُّبِينٍ ﴿٢١﴾﴾[459]، ناسب أن ينزلها على ما يحدث في واقعه، فبيّن أنّ غياب الهدهد أغضب سليمان ﷺ، فتوعّده بهذا الوعيد، ثم علّق على ذلك بقوله: "ولكنّ سلطان سليمان في قوته وملكه ومكانته يجب أن يخضع لسلطان آخر هو أعظم من سلطانه؛ هو سلطان الحق، والحق فوق كل أحد، وملك سليمان ملك حق، فلا بدّ له من

---

455. أسس مجلة المنتقد سنة 1925م، والتي أقضّت مضجع الحكومة الفرنسية، فقضت عليها بعد أن فتحت في عالم النشر والدعوة الإصلاحية صفحة جديدة لا تبليها الأيام. انظر: المدني. أحمد توفيق. 1977م. "عبد الحميد ابن باديس الرجل العظيم". *مجلة الأصالة*. عدد (44). أبريل. ص.66. وأصدر بعدها جريدة الشهاب سنة 1925م أيضًا، وكان رئيس تحريرها، فكان لها دور في إيصال أفكار حركة ابن باديس إلى عموم الشعب الجزائري، وإحداث ثورة فكرية، وحركية ثقافية، وتحول معرفي اعتبر الأول من نوعه في تاريخ الجزائر الحديث. انظر: زروقة. 1999. *جهاد ابن باديس ضد الاستعمار الفرنسي في الجزائر*. ص.119.

456. القرآن. الإسراء 17: 58.

457. ابن باديس. 1995م. *تفسير ابن باديس*. ص.123.

458. المرجع نفسه. ص.126.

459. القرآن. النمل 27: 21.

الخضوع لسلطان الحجة، ليقيم ميزان العدل، والعدل أساس الملك، وسياج العمران"[460].

وهذا القول المختصر لابن باديس يُبرز أهمية العدل ووجوبه، وأنّ على كل ذي مُلك أن يتذكر أنه مِلْك لله أولًا، وأنّ مُلك الله وسلطانه فوق كل ملوك الأرض؛ لأنه الخالق والمالك لهم، وهو أعلم بمصالحهم، فعلى كل مَلِك أن يرجع في حكمه لما شرّعه الله ﷻ؛ ليقيم ميزان العدل، فإذا ساد العدل في الدولة تميّزت بالقوة، وتحقق النصر، وإذا غاب عنها لا تقوم لها قائمة، وكان ذلك الظلم سببًا في خرابها وزوال ملكها[461].

وقد تفطّن ابن باديس للسبب الجوهري في إقامة دولة قويّة؛ وهو عدل حكامها وعدم ظلمهم أو استبدادهم، وسبب الظلم والاستبداد عند الحكام الجهل بتعاليم الإسلام الذي نهى عن ذلك، والحلّ في نظره هو رفع الجهل عن المجتمع وتوعيتهم بتعاليم الدين الإسلامي الذي يضمن لهم حياة كريمة.

والملاحظ من هذا التنزيل للآية أنّ ابن باديس كان يعتني بإصلاح الحكام؛ لأنّ صلاحهم ينعكس على مجتمعهم، ولم يُغفل كذلك الاهتمام بصلاح الشعب، فمن الخطأ أن يكون التركيز على صلاح أحدهما دون الآخر، وهذا منهج قرآني، فالله ﷻ أرسل موسى عليه السلام وأمره بدعوة فرعون أولًا، قال تعالى: ﴿هَلۡ أَتَىٰكَ حَدِيثُ مُوسَىٰٓ ۝١٥ إِذۡ نَادَىٰهُ رَبُّهُۥ بِٱلۡوَادِ ٱلۡمُقَدَّسِ طُوٗى ۝١٦ ٱذۡهَبۡ إِلَىٰ فِرۡعَوۡنَ إِنَّهُۥ طَغَىٰ ۝١٧ فَقُلۡ هَل لَّكَ إِلَىٰٓ أَن تَزَكَّىٰ ۝١٨ وَأَهۡدِيَكَ إِلَىٰ رَبِّكَ فَتَخۡشَىٰ ۝١٩﴾[462] ولم تقتصر دعوته على فرعون فقط؛ بل بدأ به ثم دعا قومه.

وهذا المنهج يستفيد منه الدعاة في عصرنا الحالي، مع ضرورة فقههم بأصول الدعوة وأساليبها.

المطلب الثاني: أهمية النظام في انضباط الجنود

عُرف ابن باديس بالنظام، وعدم اعترافه بالعفوية في السلوك والأعمال، وكان يعتبر أنّ كل الأعمال

---

460. ابن باديس. 1995م. *تفسير ابن باديس*. ص.231.

461. ابن خلدون. عبد الرحمن بن محمد. 1929م. *مقدمة بن خلدون*. بيروت: مكتبة لبنان. ج.1. ص.262.

462. القرآن. النازعات 79: 15- 19.

الموجهة لخدمة الأمة، لا يمكن أن تحقق نتائج إلا إذا كانت تعمل ضمن فريق منظم[463].

ومن القضايا السياسية التي استفاد منها في تفسيره لقصة سليمان عليه السلام قضية انضباط الجنود وتمسكهم بالنظام، وكان يعي جيدًا أنّ "الجندية روح الوطن وأساس الملك ومظهر القومية، وحياة الشعب، وعماد السلطان، فيها تتجسم عظمة الأمة وتظهر همتها، ويزيد شرفها، خصوصًا إذا مازجتها الروح الدينية، والأخلاق الأدبية؛ لأنها أقوى ما يشب نارها، ويثير تيارها"[464]، وعند تفسيره لقول الله ﷻ: ﴿وَحُشِرَ لِسُلَيۡمَٰنَ جُنُودُهُۥ مِنَ ٱلۡجِنِّ وَٱلۡإِنسِ وَٱلطَّيۡرِ فَهُمۡ يُوزَعُونَ ١٧﴾[465]، أشار إلى أنّ هذه الآية تبين لنا الصورة العامة لنظام الجندية في ملك سليمان عليه السلام فقد كان الجنود مهيئين للخدمة، وكانت لهم هيئة سياسية تتولى تنظيمهم وضبطهم، وتجمعهم عند الحاجة، وعلى الرغم من كثرتهم إلا أنّ النظام كان محكمًا لضبط تلك الكثرة ومنعها من الاختلال والفوضى.

ثم بيّن أن هذه الآية عرضت علينا هذه الصورة التاريخية والواقعية لتعلمنا كيفية التربية على الجندية المضبوطة المنظمة، وقد استفاد منها الخلفاء السابقون في تنظيم جيوشهم، وكان لذلك أثر بليغ في نفوس العرب عند إسلامهم؛ فسرعان ما تحولوا إلى جنود منظمة مما لم يكن معروفًا عندهم في الجاهلية.

وناسب أن ينزل هذه الآية على واقع المسلمين فقال: "وبقيت الآية على الدهر مذكرة لنا بأنّ النظام أساس كل مجتمع واجتماع، وأنّ القوة والكثرة وحدهما لا تغنيان بدون نظام، وأنّ النظام لا بد له من رجال أكفاء يقومون به ويحملون الجموع عليه، وأولئك هم الوازعون"[466].

---

[463]. فلوسي. مسعود بن موسى. 2006م. *الإمام عبد الحميد بن باديس لمحات من حياته وأعماله وجوانب من فكره وجهاده*. ص.107.

[464]. مغازي المختار. 1938م. "أثر القوة المعنوية في الجند" *مجلة الشهاب*. الجزائر: دار الغرب الإسلامي. فبراير. ج.12. مجلد 13. ص. 522.

[465]. القرآن. النمل 27: 17.

[466]. ابن باديس. 1995م. *تفسير ابن باديس*. ص.260.

وهذا الكلام النفيس فيه إصلاح للقائد ولمن يقودهم؛ فالقائد يجب أن يتصف بالكفاءة والقدرة، وجيشه يتصف بالطاعة والانضباط؛ لأنّ التنظيم له أهمية بالغة في القوة الداخلية للجيش- مهما كانت كثرته وقوته- كما أنه يُسهم في تحقيق الأهداف العسكرية، وبالنظام والانضباط قامت الجيوش القوية في الماضي، وسيظل النظام من أهم الصفات التي يقوم عليها بناء الجيوش القوية، مهما بلغ التطور في صناعة الأسلحة.

المطلب الثالث: المحافظة على الثغر الذي هو عليه

بعد بيان ابن باديس لأهمية النظام والانضباط عند جنود المسلمين بيّن أهمية المحافظة على الثغر الذي يقف عليه الفرد في الدولة، فقال: "كل واحد في قومه أو في جماعته هو المسؤول عنهم من ناحيته، مما يقوم به من عمل حسب كفاءته واستطاعته، فعليه أن يحفظ مركزه ولا يدَع الخطر يدخل، ولا الخلل يقع من جهته؛ فإنه إذا قصر في ذلك وترك مكانه فتح ثغرة الفساد على قومه وجماعته، وأوجد السبيل لتسرب الهلاك إليهم، وزوال حجر صغير من السد المقام لصد السيل يُفضي إلى خراب السد بتمامه، فإخلال أي أحد بمركزه -ولو كان أصغر المراكز- مؤدٍ إلى الضرر العام، وثبات كل واحد في مركزه وقيامه بحراسته هو مظهر النظام والتضامن وهما أساس القوة"[467].

ويُلاحظ من كلامه السابق أنه ينوّه بشأن مظهر من مظاهر القوة والنظام في الدولة، وهو حفظ كل فرد لما وُكل إليه، ومحافظته على الأمانة التي حملها؛ لأنّ تفريطه فيها قد يترتب عليه هلاك لكافة الأفراد، وهذا التنزيل يدلّ على ثقافته واطلاعه على مقوّمات الدولة القوية، والتي كان يسعى إلى استعادتها بعد استعمار فرنسا للجزائر.

المطلب الرابع: استحقاق العقوبة لمن فارق الصف

---

[467]. ابن باديس. 1995م. *تفسير ابن باديس*. ص.231.

لا زال الحديث عن أهمية وحدة الصف عند المسلمين، ومحافظة كل فرد على الثغر الذي أُقيم فيه، وفي قوله تعالى: ﴿وَتَفَقَّدَ ٱلطَّيۡرَ فَقَالَ مَالِيَ لَآ أَرَى ٱلۡهُدۡهُدَ أَمۡ كَانَ مِنَ ٱلۡغَآئِبِينَ ٢٠ لَأُعَذِّبَنَّهُۥ عَذَابٗا شَدِيدًا أَوۡ لَأَاْذۡبَحَنَّهُۥٓ أَوۡ لَيَأۡتِيَنِّي بِسُلۡطَٰنٖ مُّبِينٖ ٢١﴾[468]، بيّن ابن باديس أنّ الله ﷻ قصّ علينا أنّ ذلك الهدهد كان من جنود سليمان الذين حُشروا له، وكان في مكانه الذي عُيّن له، فلما فارقه وترك الفُرجة في صفه، استحقّ العقاب الشديد الذي لا هوادة فيه.

ثم أراد ابن باديس أن ينبّه بأنّ هذه الشدة والصرامة مهمة للحفاظ على أمن وسلامة الجميع، فقال: "وهذا أصل في صرامة أحكام الجندية وشدتها[469]؛ لعظم المسؤولية التي تحملتها، وتوقّف سلامة الجميع على قيامها بها، وعظم الخطر الذي يعم الجميع إذا أخلت بها"[470].

وهذا التأصيل منه والتنزيل الصحيح للآية يدلّ على فهمه العميق لأصول الدين، وحرصه على تطبيق ذلك الفهم على واقعه ببيان أثر التساهل في مثل هذه الأمور، وأنّ تلك العقوبة الشديدة تكون في مقابل شدة أثر الخطأ الذي يرتكبه من أُتِيَ من قِبَله؛ حيث يلحق الضرر بالمجتمع، ويتزعزع أمنه واستقراره.

وأمتنا الإسلامية بحاجة إلى مثل هذا التنزيل؛ لأنّ حزم القائد يصحح السير، ويصلح الأخطاء، ويعمل على تحقيق الأهداف بجدّ ووضوح، فالحزم والصرامة من أهم سمات القائد في إدارة مؤسسته؛ للقضاء على الفوضى التي يمكن وقوعها.

---

468. القرآن. النمل 27: 20- 21.

469. هذا التنزيل يوافق ما قاله ابن عاشور أنّ هذه الآية ويؤخذ منها جواز عقاب الجندي إذا خالف ما عُيّن له من عمل أو تغيّب عنه. انظر: ابن عاشور. 1984. *التحرير والتنوير*. ج.19. ص.246. وقال الشعراوي: ومعاقبة المخالف أمر ضروري؛ لأنّ أيّ مخالفة لا تُقابل بالجزاء المناسب لا بُدَّ أن تثمر مخالفات أخرى متعددة أعظم منها، فحين نرى موظفاً مُقصِّرًا في عمله لا يحاسبه أحد، فسوف نكون مثله، وتنتشر بيننا الفوضى والتكاسل واللامبالاة، وتحدث الطَّامة حينما يُثاب المقصر ويُرَقى مَنْ لا يستحق. انظر: الشعراوي. 1997 م. *تفسير الشعراوي – الخواطر-*. ج.17. ص.10766.

470. ابن باديس. 1995م. *تفسير ابن باديس*. ص.269.

ويحسن أن يُضمَّن هذا التنزيل في الكتب والمدارس الخاصة بإعداد القادة؛ لأنّ قوتهم وحزمهم قوة للدولة الإسلامية كلها.

المطلب الخامس: تفقد الملك لرعيته

وقف ابن باديس على درس جليل، ومهمة أساسية من مهام الملك، وذلك عند تفسيره لقول الله ﷻ: ﴿وَتَفَقَّدَ ٱلطَّيۡرَ فَقَالَ مَالِيَ لَآ أَرَى ٱلۡهُدۡهُدَ أَمۡ كَانَ مِنَ ٱلۡغَآئِبِينَ ٢٠﴾[471]، فأشار إلى أنّ سليمان عليه السلام على عظمة ملكه، وكثرة أتباعه واتساع جيشه، إلا أنه تولى التفقّد بنفسه، ولم يُهمل أمر الهدهد على الرغم من صغره وصغر مكانه.

ثم أكّد على أنّ من حق الرعية على راعيها أن يتعرف على أحوالهم ويتفقدها؛ لأنه مسؤول عنهم[472]، فعليه أن يباشر بنفسه ما يستطيع مباشرته منها، ويجتهد بوضع الوسائل التي تطلعه على ما غاب عليه منها.

ثم ختم كلامه بقوله: "وهذا التفقّد والتعرّف هو على كل راع في الأمم والجماعات، والأُسر والرفاق وكل من كانت له رعية"[473].

ويظهر من تنزيله للآية استشعاره للمسؤولية والأمانة؛ فقد حثّ كل راعٍ أن يتفقد رعيته؛ لأنّ تقاعس الملك عن تفقد أحوال رعيته هو ضياع للأمانة، وضياع للأمّة، والقائد الناجح هو من باشر أمور رعيته بنفسه –خاصة الذين يلونه مباشرة–، واتصف باليقظة الدائمة، واستشعار تحمّل الأمانة، امتثالًا لقول النبي

---

471. القرآن. النمل 27: 20.

472. وافق تنزيله ما قاله أبو حيان وابن عاشور بأنّ في هذه الآية دلالة على أنّ من واجبات ولاة الأمور تفقد أحوال الرعية وتفقد العمال ونحوهم بنفسه أو بمن يكل إليه ذلك، انظر: أبو حيان. محمد بن يوسف بن علي. 1420هـ. *البحر المحيط في التفسير*. بيروت: دار الفكر. ج.8. ص.223. ابن عاشور. 1984. *التحرير والتنوير*. ج. 19. ص.245.

473. ابن باديس. 1995م. *تفسير ابن باديس*. ص.266- 267.

ﷺ: «كُلُّكُمْ رَاعٍ وَمَسْئُولٌ عَنْ رَعِيَّتِهِ»[474].

وابن باديس بيّن شمول هذه الآية؛ فجعل التفقّد لكل راعٍ، ويدخل في هذا الحاكم والمدير والمسؤول والوالد، وكل من كانت له رعية، ويسّر الأمر لمن اتسعت دائرة مملكته، ولم يستطع تفقّد جميع من تحته من الرعايا بنفسه؛ بأن يجتهد بوضع وسائل تعينه على ذلك، وهي كثيرة في عصرنا الذي يشهد تطورًا كبيرًا في ظل التكنولوجيا الحديثة، من خلال البرامج التي تُعين على القيام بهذا الواجب.

المطلب السادس: الشورى[475]

إنّ الغاية الأساسية للقرآن كما فهمها ابن باديس هي غاية عملية، تهدف إلى بناء مجتمع إسلامي يتصف بالقوة، ويسوده النظام والتشاور والتناصح، وكان يشير إلى أنّ حرية إبداء الرأي من جميع أفراد الرعية والرجوع إلى الصواب من رُعاتها، تنبني به سعادة الأمة وعظمتها، وتشعر به الأمة بالوحدة بين الرعية ورُعاتها، ومنه تستمد الأمة النظم اللازمة لها في حياتها[476]، وبنظرته التفسيرية الشاملة للقرآن؛ وقف على كثير من الآيات ليستنبط منها منهجًا ربانيًا يتحقق فيه القوة والنصر والغلبة للمسلمين، ومن هذه الآيات قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَإِذَا كَانُواْ مَعَهُۥ عَلَىٰٓ أَمْرٍ جَامِعٍ لَّمْ يَذْهَبُواْ حَتَّىٰ يَسْتَـْٔذِنُوهُ ۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَسْتَـْٔذِنُونَكَ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ۚ فَإِذَا ٱسْتَـْٔذَنُوكَ لِبَعْضِ

---

474. البخاري. 1422هـ. *صحيح البخاري*. كتاب في الاستقراض وأداء الديون والحجر والتفليس. باب العبد راعٍ في مال سيده ولا يعمل إلا بإذنه. ج.3. ص.120. رقم الحديث: 2409. ومسلم. د. ت. *صحيح مسلم*. كتاب الإمارة. باب فضيلة الإمام العادل وعقوبة الجائر. ج.3:1459. رقم الحديث: 1829.

475. الشورى: هي الإشارة بالآراء ومداولتها، للوصول إلى الأصلح في أمر من الأمور. العيد. سيمان بن قاسم. 2002. *النظام السياسي في الإسلام*. المملكة العربية السعودية: دار الوطن للنشر. ص.185.

476. طالبي. 1968. *آثار ابن باديس*. ج.4. ص.242.

شَأۡنِهِمۡ فَأۡذَن لِّمَن شِئۡتَ مِنۡهُمۡ وَٱسۡتَغۡفِرۡ لَهُمُ ٱللَّهَۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٞ رَّحِيمٞ ﴿٦٢﴾[477]، وعند تفسيره لهذه الآية نزلها على واقعه فأشار إلى أنّ سبب مصيبة المسلمين اليوم يرجع إلى إهمالهم لأمر الاجتماع ونظامه؛ ويكون ذلك باستبداد أئمتهم وقادتهم، أو بضعف روح الدين فيهم، وجهلهم بما يفرضه عليهم، ثم جعل السبب في ذلك في سكوت علمائهم، وعدم القيام بواجبهم في مقاومة المستبدين، وتعليم الجاهلين، وبث روح الإسلام في المسلمين.

ثم وجّه نصيحة إلى العلماء فقال: "فعلى أهل العلم- وهم المسؤولون عن المسلمين بما لهم من إرث النبوة فيهم- أن يقوموا بما أرشدت إليه هذه الآية الكريمة؛ فينفخوا في المسلمين روح الاجتماع والشورى، في كل ما يهمهم من أمر دينهم ودنياهم، حتى لا يستبدّ بهم مُستبِد، ولا يتخلف منهم متوانٍ، وحتى يظهر الخاذل لهم ممن ينتسب إليهم، فيُنبذ ويُطرح ويُستغنى عنه بالله وبالمؤمنين"[478].

وكأنه يشير إلى ما كان يحصل في زمانه من ظلم واستبداد الاستعمار الفرنسي، فأراد أن ينبّه العلماء إلى أهمية الاجتماع والتشاور؛ حتى تتوفر لهم الفرصة لسماع أهل الخبرة والحكمة؛ -فرأي الجماعة غالبًا يكون أصح من رأي الفرد-، ومن ثَم يتم اختيار الرأي الرشيد الذي يُسهم في حفظ الدولة واستقرارها.

خلاصة المبحث:

1- تعريض ابن باديس بمدى الظلم والاستبداد من قبَل الاستعمار، وقدرته على توظيف آيات القرآن لعلاج ذلك الواقع.

2- تميّز أسلوب ابن باديس في تنزيل الآيات على الواقع في القضايا السياسية بالشدة والصرامة.

3- اهتمامه بقضايا السياسة الشرعية، وبما يدور في واقعه ومن أهم الجوانب: والشورى، والعدل،

---

477. القرآن. النور 24: 62.

478. ابن باديس. 1995م. *تفسير ابن باديس*. ص.235- 236.

وانضباط الجنود، واستحقاق العقوبة لمن فارق الصف.

UNIVERSITI SAINS ISLAM MALAYSIA
جامعة العلوم الإسلامية الماليزية
ISLAMIC SCIENCE UNIVERSITY OF MALAYSIA